مصطفى نصر

البحث في الأوراق القديمة

الكتاب: البحث فى الأوراق القديمة (مقالات وذكريات)

الكاتب: مصطفى نصر

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

نصر، مصطفى

البحث فى الأوراق القديمة / مصطفى نصر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٢٦٦ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٥١٥٣ / ٢٠١٦

البحث في الأوراق القديمة





مقدمة

أول مرة سمعت عن حادث المحاكم الشرعية المشهور، من زميل لي في العمل، أكبر مني، قال لي إن الدولة ألغت المحاكم الشرعية بسبب هذا الحادث – الموضوع أن شيخين في المحكمة الشرعية يتعاملان مع السيدات اللائي يرفعن قضايا نفقة من أزواجهن، مقابل أن يرفعن لهن قيمة النفقة. وتم ضبطهما في فيلا في حي السيوف.

وبعدها بقليل تم إلغاء المحاكم الشرعية، وابتعد الأزهر عن المحاكم، وأعتقد أن هذا كان اتجاها من الدولة لتوحيد القضاء، وليست له أية صلة بما حدث في فيلا السيوف، لكن الشائعات خرجت لتؤكد غير ذلك.

عندما قُتل بطرس غالي بيد إبراهيم الورداني، أحس الإنجليز المحتلون أن مصر دخلت عصر الاغتيالات السياسية، فكونوا البوليس السياسي ورأسه ضابط من أصل يوناني اسمه جورج فلبيدس – استطاع في سنوات قليلة أن يسيطر على البوليس المصري، فلا تتم ترقية إلا بإذنه، ولا ينتقل ضابط من مدينة لأخرى إلا برغبته، وتجسس على

الصحفيين والكتاب، واشتركت زوجته أسما وعسكري مراسلة اسمه محمد حربي في قبول الرشاوى. لكن ضابط جيش انتقل للبوليس، فطلب فلبيدس منه رشوة مقابل ترقيته، فاشتكاه لرؤسائه. وبدأ التحقيق معه، وظهرت الخبايا والقضايا المختبئة، فأدين وسجن هو وزوجته وعسكري المراسلة.

المسيو بريس دافين، أحد المفكرين الذين صاحبوا حملة نابليون بونابرت على مصر، ومكثوا في البلاد بعد رحيل الحملة، وكان هذا الرجل مقرباً في بلاط محمد علي فألف كتابه "بعض الذكريات السرية الخاصة بالبلاد المصرية" كان هذا الكتاب، ضمن كتب الأمير عمر طوسون، ولأن المؤلف ذكر أسرارا تسيء لأسرة محمد علي، فقرر عمر طوسون أن يحرق الكتاب، لكنه لم يفعل، ووصل الكتاب للمتحف اليوناني الروماني، وعثر عليه الأستاذ يوسف فهمي الجزايرلي فترجمه. ومما ذكره، أن عندما كان إبراهيم باشا يحارب في الصعيد كتب إلى القاهرة يطلب حضور حريمه، ولكن والده – محمد علي – أرسل إليه بدلا من نسائه؛ مماليك قائلاً له:

– إن رجل الحرب لا ينبغي أن يكون له من حريم غير هؤلاء.

ونشرت مؤسسة أخبار اليوم في سلسلة كتاب اليوم العدد ٣٢٣ في يوليو ١٩٩١ – أي بعد حوالي ثمانية عشر عاماً من نشر كتاب الجزايرلي، أيام كان يشرف على تحريرها الأستاذ جمال الغيطاني –كتاباً بعنوان إدريس أفندي في مصر، واتضح لي أن إدريس هذا ما هو إلا

"بريس دافين" الذي سبق أن تحدث يوسف فهمي الجزايرلي عنه في كتابه، وترجم بعض فصوله.

فقد عثر الدكتور أنور لوقا – الأستاذ المصري بالجامعات الفرنسية – على مذكرات تاريخية ضمن مؤلف ضخم بالفرنسية يتكون من أربعة عشر مجلدًا عن مصر للمهندس والفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين. الذي وفد على مصر في أواخر عهد محمد علي، ومكث بها إلى أواخر عهد الخديو إسماعيل، وخلال إقامته بمصر أشهر إسلامه وسمى نفسه إدريس أفندي.

وأتناول في كتابي هذا مقالات عن الحمير وأهميتها – وعن ضرب الزوجات لأزواجهن، وعن هروب الأزواج من زوجاتهم، وعن الصلة بين الجنس والسحر، وعن الذين يدفنون أحياء – فيتم استخراج شهادات الوفاة لهم دون أن يفحص الطبيب جثة الميت، ويتضح بعد ذلك إنها كانت حالة إغماء، أو حالة قتل، وعن الذين عادوا للحياة.

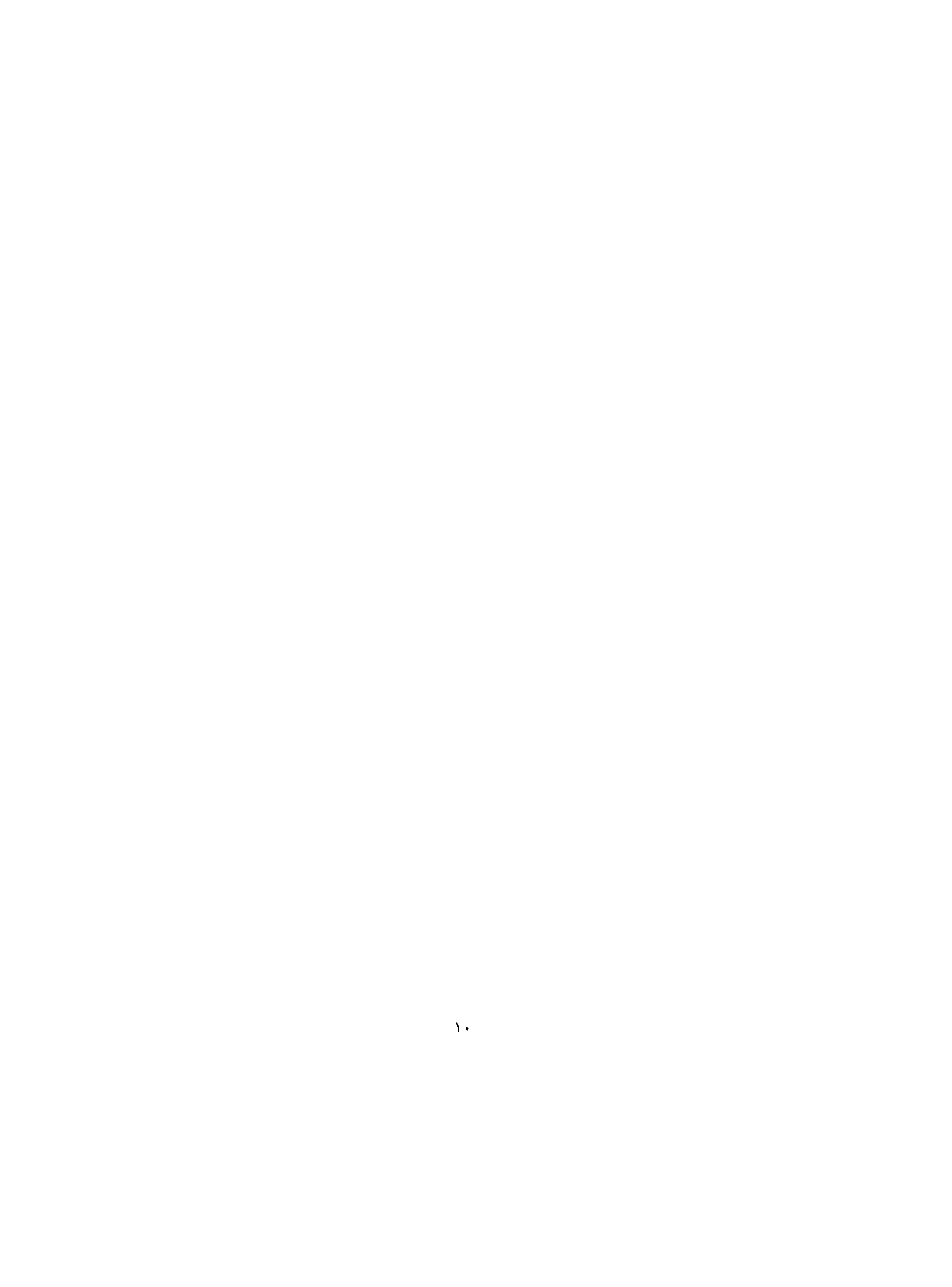
ويتناول الكتاب أيضا، الحديث عن مقاهي الإسكندرية القديمة والحديثه وما يحدث فيها من نوادر، وعن الأطعمة التي يتناولها أهالي الأحياء الشعبية في الإسكندرية، وعن حركة البيع والشراء هناك.

وأحكي في الكتاب عن هجرة الأجانب من مصر بعد قيام ثورة يوليو ٥٢، وترك شققهم ومحلاتهم الكبيرة والمشهورة لعمالهم، وقد نال حينا الشعبي الفقير، الكثير من هذه الحالات، أدت لتغيير في حياة

الناس هناك، ففجأة تحولوا لأغنياء أصحاب عمارات وسيارات بعد أن كانوا فقراء ومحتاجين.

ويحكي الكتاب عن الحفاة في مصر – وعملية الإخصاء التي كانت تتم في صعيد مصر. وما يحدث من غرائب في حلقة السمك بالأنفوشي، وأصحاب الأضرحة والنذور في الإسكندرية، وعن المبارة التي تحدث كثيرا في العشق والزواج بين المسلمين والمسيحيين في مصر – والمطالبة بإنشاء المجلس القومي للرجل، ليحصل الرجال على حقوقهم من جور النساء.

حكاية المحاكم الشرعية المشهورة



مديرية أمن الإسكندرية

مساء ٢١ يونيو ١٩٥٥، الجو شديد الحرارة بشارع عبد المنعم القريب جدا من ضريح سيدي أبي الدرداء. وعبد القادر محمود – العقيد بمديرية أمن الإسكندرية – يتصفح مجموعة من الأوراق أمامه، يدق الباب، يدخل جندي ويقول:

– امرأة بالباب تطلب مقابلتك.

يشير العقيد له بأن يدخلها. تدخل امرأة شابة، ترتدي ملابس متواضعة وصندلا في قدميها وتفرق شعرها الأكرت العاري، تقول في ارتباك وخجل:

– كنت رافعة قضية نفقة لي ولأولادي عطية وفريدة. وحكمت المحكمة برئاسة الشيخ عبد القادر الفيل بنفقة ٢٤٠ قرشا فقط رغم أن دخل زوجي ١٤ جنيها في الشهر.

ضاق العقيد بحديثها، فهو لا يملك تغيير الحكم:

– قدمي – يا ست – اعتراض على ذلك في المحكمة الشرعية.

– قدمت.

– وما المشكلة الآن؟ !

ترددت طويلا حتى ضاق العقيد بها:

- تكلمي ماذا تريدين؟

- القاضي يريد ..

- ماذا يريد؟

بكت، ففهم العقيد، فسألها ليتأكد:

- هل طلب منك شيئا؟

أومأت برأسها. ما الذي يريده هذا الشيخ من امرأة فقيرة كهذه غير جسدها؟ !

أحس العقيد بالضيق، فقال:

- ما اسمك؟ !

- شفيقة شاكر.

رق العقيد لحالها، فقد كانت ترتعش وهي تتحدث، أشار إليها بالجلوس.

جلست، كانت جميلة ولم تستطع الملابس المتواضعة وغير المتناسقة أن تخفي هذا الجمال.

قالت من بين دموعها:

- عملت معارضة في الحكم وقدمت المستندات المطلوبة. لكن القاضي ظل يؤجل القضية. وفي الجلسة الأخيرة طلب مقابلتي على انفراد وقال لي: " نظمي سيشرح لك كل شيء ".

- ومن نظمي هذا؟

- صبي المحامي الذي يترافع عني.

- وماذا قال لك نظمي هذا؟

بكت مرة أخرى. لعنت زوجها ألف مرة لأنه كان سبباً في موقفها هذا. قالت:

- قال إن القاضي يريدني في الحرام.

أخرج العقيد ورقة من مكتبه وكتب اسمها، وعنوان بيتها، قالت:

- ٧ شارع ابن خليفة بالباب الجديد.

وقف وصافحها في ابتسام، كان معجبا بموقفها:

- سأتصل بك .

تقف شفيقة أمام محطة الترام، يظهر باب مديرية الأمن الكبير، وجزء كبير من المبنى الشامخ العملاق.

تنظر إلى الشارع الطويل الذي يبدأ من ميدان سانت كاترين، لا تظهر الترام التي ستنقلها إلى "محطة مصر" القريبة من بيتها.

يتصل العقيد بمحافظ الإسكندرية " كمال الديب "، فأشار المحافظ بعرض الموضوع على النيابة العامة، وأن تتم التحقيقات في سرية تامة.

تنظر شفيقة إلى الطريق الطويل لعلها تلمح ترام آتية من بعيد، أحست بألم في كف يدها، اكتشفت أنها تضم القرش الأحمر المشرشر بيدها في عنف، مما أدى إلى احمرار اليد، وتسبب ألم فيها. الرجل طلقها بعد خلافات بسيطة، إنه يكسب كثيرا، وينفق ما يكسبه على ملذاته وسهراته الدائمة مع زملائه الصنايعية. في ليلة اشتد الشجار بينهما، فطردها من شقته.

أخذت ابنها عطية وابنتها فريدة وعادت إلى بيت أمها في الباب الجديد. عاشت مع أمها الفقيرة. البيت دور واحد، مبني بالخشب والطوب، في الشتاء تتساقط مياه المطر من خلال قطع الخشب الصغيرة بين العروق الخشبية والحديدية، تضطر أمها أن تسد الثغرات بالأسمنت والرمل.

هي ليس لديها دخل، والولد عطية والبنت فريدة في حاجة إلى طعام ومصروف يومي مثل باقي الأطفال.

الطريق ليس طويلا من مبنى مديرية الأمن حتى بيت أمها في الباب الجديد، فسارت تطرقع بالشبشب القديم، اجتازت الباقي من شارع أبي الدرداء، ثم دخلت شارع راغب باشا حتى جامع سلطان، ثم اتجهت إلى بيت أمها – خلف مسجد الحضري، قبل بداية شارع الحضري، واجهها مكتب محمود الكحلاوي؛ المحامي الشرعي، رأت من خلال الفراندة الكبيرة المفتوحة؛ نظمي مساعده، يقف بقامته الطويلة الشاحبة، يمسك الأوراق بيد والسيجارة بالأخرى.

دخلت بيت أمها دون قول، صاحت المرأة فيها:

– فين يا شفيقة اللي قلت لك عليه؟

لقد أوصتها أمها بشراء الخضار من سوق النصارى، لكنها نسيت كل شيء.

لم تجب أمها وسارت إلى حجرتها صامتة.

زارتها أخت زوجها المتعاطفة معها والتي تأتي لترى أطفال أخيها وتعطف عليهما. عندما رأتها ضمتها شفيقة لصدرها وبكت. حكت لها

عما حدث من الشيخ الفيل ومن العقيد الذي شكت له في مديرية الأمن. إنها لم تحك هذا لأمها، خشية أن تنقل هذا للجيران وينتشر الخبر في المنطقة، ولن ينوبها سوى الفضيحة، خاصة أن مكتب المحامي الشرعي الذي وكلته للدفاع عنها؛ قريب جدا من البيت، فلماذا حكت لأخت زوجها؟! ربما أرادت أن تبين لها أنها شريفة، وربما أرادت أن تحكي الأخت ما حدث لأخيها فيأتي ويردها وتنتهي كل مشاكلها.

داخل أروقة النيابة: كانت الأوراق تنتقل بسرعة من مكتب إسماعيل حسن رئيس النيابة وإلى مكتب محمود عباس الغمراوي وكيل أول النيابة الذي أسرع بدوره إلى استدعاء السيدة الشاكية لفحص بلاغها وبدء التحقيق فيه. بعدها أمر وكيل أول النيابة أن تساير السيدة شفيقة شاكر القاضي وتتظاهر بقبول عرضه والاستجابة لرغبته في" الخلوة " التي يريدها. وفي نفس الوقت تأمر النيابة بأن تقوم المباحث بعمل التحريات وما يلزم من مراقبات!

جاءت شفيقة إلى مديرية الأمن بعد عدة أيام وقابلت العقيد عبد القادر محمود وأخبرته بأنها ذهبت إلى مقر المحكمة الشرعية في المنشية وقابلت الشيخ الفيل الذي أخذها من يدها وذهب بها إلى زميله الشيخ عبد الفتاح سيف وكيل المحكمة وتم الاتفاق على اللقاء في الساعة السادسة من مساء نفس اليوم بمكتب محاميها الشرعي محمود الكحلاوي، وهناك سيقابلون سيدتين أخريين مطلقتين تنضمان إلى السهرة المرتقبة في إحدى الفيلات.

أكدت التحريات بأن الشيخين عبد القادر الفيل وعبد الفتاح سيف يتقابلان مع النساء في فيلا تاجر مشهور في الإسكندرية بمنطقة السيوف الهادئة ذات الفيلات القليلة الراقية. فيأمر كبار المسئولين بمتابعة الواقعة بدقة متناهية قبل إخطار القيادة السياسية، بل ويأمر رئيس النيابة بوضع الفيلا تحت الحصار الأمني من كل الاتجاهات وعدم اقتحام المكان إلا بحضوره شخصيا ومعه باقي أعضاء النيابة العامة.

داخل مكتب المحامي الشرعي

مكتب مشهور في منزل قديم بشارع جامع سلطان، بابه منفصل عن باب البيت، وفراندة كبيرة أمام المكتب، تجلس فيها النسوة المتشحات بالملاءات السوداء على الأرض؛ انتظارا لدورهن في مقابلة المحامي أو مساعده.

سيدات كثيرات يحدثن نظمي – صبي المحامي – ويسألنه عن قضاياهن، وهو يبتسم لهن، تأتي رشيدة فايد، امرأة تميل للسمرة، ترتدي ملابس أنيقة، تركها زوجها بعد أن تعرف على امرأة أكثر جمالا منها وأقل عمرا، وعدها الشيخ سيف الذي ينظر قضيتها بأنه سيحكم لها بمبلغ كبير جدا، وهي في حاجة إلى هذا المبلغ.

تتحدث همسا مع نظمي، يشير إلى مقعد كبير (دكة) لتجلس فوقه، ثم جاءت بعد وقت قصير نوال الدسوقي، قصيرة، في وجهها نمش، كانت عصبية وقلقة، جلست بجوار رشيدة دون قول لم تتحدث

مع نظمي، واضح أنها جاءت إلى هذا المكتب كثيرا. نظرت حولها في ضيق، وصاحت في وكيل المحامي:

– ألن ننتهي من هذه المشكلة؟!

أحس نظمي أنها ستفسد كل شيء بعصبيتها، فأسرع إليها:

– اهدئي، قبل أن تشربي شايك، ستكون الزبونة الثالثة قد جاءت، وسننتهي من كل شيء .

– ولماذا تأخرتْ؟ !

دخلت شفيقة، تعرف هذا المكان جيدا. فقد دلتها عليه جارتها في شارع ابن خليفة، قالت: محامي شرعي ليس له مثيل، يخرب بيت الخصم رجل أو امرأة.

وعندما علمت أن القاضي حكم لها بنفقة شهرية ٢٤٠ قرشا في الشهر بكت. لكن نظمي اقترب منها، وربت على ظهرها قائلا:

– القاضي يمكن أن يرفع النفقة ويضاعفها، لكن نظرة منك.

وفعل بعينيه وفمه ووجهه كله إشارات ضايقتها.

لم تصدقه أول الأمر، ظنت أنه يدعي هذا ليأخذ نقودا منها، لكن القاضي في اليوم التالي، أمسك يدها بطريقة موحية ففهمت أن نظمي كان صادقا في قوله.

قال نظمي:

– لقد اكتملت الشلة، تشربوا الشاي أولا.

وقفت نوال الدسوقي في عصبية وقالت: ياللا بينا.

لكن رشيدة قالت:

- نشرب الشاي أولا .

في كل مرة يدعوهن نظمي إلى شرب الشاي ولم يفعلها مرة واحدة. ولا تذكر شفيقة أنها رأت كوبا للشاي في يد أحد في المكتب سوى المحامي محمود الكحلاوي.

ركب نظمي بجوار سائق التاكسي، وركبت النسوة الثلاث في الخلف. قال نظمي:

- سنذهب إلى السيوف.

قدم نظمي سيجارة إلى سائق التاكسي، ودخنا معا وهما يتحدثان عن منطقة السيوف، المليئة بفيلات الأغنياء، ومعظمها سكن للملذات.

توقفت السيارة عند مزلقان فيكتوريا المغلق لمرور القطار، وأشار نظمي إلى الشيخين الفيل وسيف اللذين أسرعا إلى التاكسي، ركب سيف بجوار نظمي، وانحشر الفيل بجوار النسوة الثلاث. كان نظمي مهذبا في الحديث معهن، لا يخاطبهن إلا بلقب " فضيلتك ."

نظر سيف خلفه وداعب نوال، أعاد عليها ما يذكره لها كلما قابلها: " سأجعل زوجك ينظر خلفه وهو سائر من شدة الخوف منك، وسأجعله يحدث نفسه " .

واكتفت هي بابتسامة مغتصبة. وتابعت ما يحدث في ضيق، لدرجة أنها كانت تزفر من وقت لآخر. وشوقية لم تعلق بشيء.

فيلا التاجر الكبير في السيوف

أشار نظمي إلى فيلا كبيرة حولها خواء، توقف التاكسي، ونزل نظمي بعد أن حاسب السائق. وتحدث الفيل مع سيف وضحكا وهما يتابعان النسوة الثلاث. لقد أعجبا بجمال شوقية، واختلفا من الذي سيبدأ معها. جاء نظمي، أسرع إلى الشيخين معتذرا لتأخره وهو يحاسب سائق التاكسي.

ودخلا الباب الحديدي الكبير المفتوح، ساروا جميعا في دخلة محاطة بالشجيرات القصيرة، فواجههم بابا كبيرا مضاء من الداخل. دقه نظمي في خفة، ففتحه شاب يلبس بيجامة كان قريبا منه، وتبعه آخر أكبر منه سناً، كان يرتدي بيجامة قريبة من لون بيجامة أخيه.

– أهلا بكم.

تراجعت نوال دسوقي. الله يلعن هذه الأيام التي ألجأتها إلى موقف قذر مثل هذا، لو كانت قتلت زوجها؛ لكان أهون مما يحدث. وترددت رشيدة ثم دخلت. واضح أن الشيخين يبديان اهتماما خاصا بشوقية التي دخلت صامتة؛ تتابع المكان برهبة. قال نظمي للشابين: والدكما موجود في الإسكندرية؟

قال أحدهما وهو يتابع النسوة الثلاث في اهتمام: في البيت الثاني.

لقد جاء الشيخان كثيرا إلى هذا المكان، أحيانا لمقابلة صاحبه التاجر المشهور، لكن الجلسة تكون قاصرة على تدخين الحشيش

وشرب الخمر، لكن ولداه يشتركان في السهرات التي تحليها النساء، دون علم والدهما. نظمي يتصل بهما ويوضب كل شيء .

يسكن التاجر الكبير في بيت كبير في شارع فرنسا، وهذه الفيلا لملذاته، ويأتيها الولدان أحيانا بحجة المذاكرة، غير هذا فالفيلا مغلقة ومهجورة معظم الوقت.

لقد جاءها الولدان منذ ساعة – لا أكثر – لإعداد الجلسة، اشتريا الحشيش والخمر، فكل اللوازم على حسابهما الخاص – هذا هو الاتفاق مع نظمي – مقابل الاستمتاع بجسد النساء اللاتي يأتي بهن في كل مرة .

جلس الشيخان على المقاعد الخيرزانية الواسعة، وأخذا يتحركان بهما حركات رتيبة فأحسا بسعادة غامرة، وكادت النسوة الثلاث يهربن من المكان الموحش، إنهن يشتركن في هذه المغامرة لأول مرة. بكت نوال الدسوقي، ومسحت دموعها خشية أن تغضب الشيخين فيحكما عليها بأحكام تذلها أمام أعدائها، أقارب زوجها.

قدم نظمي الأشياء التي اشتراها ولدا التاجر الكبير: اللحوم والأسماك والكبد، والفاكهة. يدعي نظمي أمام الشيخين أنه يدفع ثمن هذه الأشياء من جيبه الخاص حبا فيهما، ويدعي أمام محامية أن الجلسة تكلفت كذا. ويدفع المحامي مقابل أن يكسب كل القضايا المقدمة أمام الشيخين .

كانت النسوة وكأنهن في انتظار استجواب في قسم البوليس ترتعش أجسادهن. مد الشيخ الفيل يده نحو ظهر شوقية، أراد أن يخطفها من زميله، لكنها تباعدت وهي تبتسم. ومد الشيخ سيف يده نحو يد نوال الدسوقي، فأبعدتها قائلة:

– انتظر حتى أسترد أنفاسي.

ضحك الرجال جميعا وكأنها قالت نكتة، وأشعل نظمي الفحم في مدفأة فخارية، وأخذ ينفخ فيها حتى احمر وجهه، وكاد شاربه يحترق عندما هبت النار فجأة. فضحك الرجال. أحس سيف بأن الفيل لن يترك له شوقية، فركز على الأقل منها جمالا – نوال الدسوقي – أما رشيدة فهي كبيرة في السن، وكان زوجها محقا عندما تركها وغوى غيرها. لكنها قد تنفع ولدا من ولدي التاجر الكبير. أما نظمي فهو لا يشترك إلا في تدخين الحشيش وشرب الخمر وأكل المزات طوال الليل.

وضع سيف ذراعه حول رقبة نوال، وهمس في أذنها:

– سأحكم لك من أول جلسة، وزوجك الذي عذبك؛ سأعذبه.

لانت المرأة، وتركته يداعب صدرها. عندما أراد أن يمد يده نحو أشياء أخرى، قالت:

– ليس أمام الناس.

ضحك، وأمر نظمي بإعداد حجرة لهما.

حمل نظمي مرتبة من فوق أحد الأسرة ورماها على أرض حجرة مجاورة، وفرشها بملاءة ذات خطوط خضراء، فسار بها سيف ممسكا بوسط نوال، ورماها في عنف فوق المرتبة، لم تكن سعيدة، وكان قلبها

يدق في عنف، لكن ما فعله زوجها هو وأخواته معها يستحق أن تضحي بكل شيء .

سمع الولدان أصواتا غريبة فوق سطح الفيلا، أرادا أن يتحدثا في هذا، لكن الأصوات ضاعت وتلاشت، وانشغلا بالأشياء المسلية أمامهما. وفجأة دخلت القوات المكان دون أن تدق بابا. دخلوا من النوافذ المفتوحة لتُخرج دخان الحشيش. كانت مصيبة. الشيخ الفيل لم يفعل شيئا سوى أن لمس ظهر شوقية التي كانت تتابع الأشياء في صمت وقلق؛ تنتظر القوات التي اتفقت معها على الهجوم. ورشيدة أكلت كثيرا، فهي منذ سنوات لم تذق هذه الفواكه ولم تذق هذه الأنواع من الأسماك.

كان سيف مشغولا بجسد نوال، ظن ما يحدث في الخارج ضجة يحدثها الشابان، من فرط النشوة وتأثير الخمر والحشيش، وجد الرتب الكبيرة، العقيد عبد القادر محمود، الرائد علي لطفي، النقيب محمد توفيق، ومجموعة من رجال البوليس لحفظ النظام .

التحقيق

تم القبض على الجميع بما فيهم شفيقة شاكر (المُبلغة) ونقلوا بسيارت البوليس إلى نقطة بوليس المنتزه .

أسرع المحامي العام بالاتصال تليفونيا بوزير العدل الذي تولى بنفسه إخطار القيادة السياسية ليتخذ مجلس قيادة الثورة برئاسة جمال عبد الناصر قرارا في الواقعة. هل تتم إحالتها إلى القضاء العسكري لمحاكمة المتهمين، أم أن هناك اتجاها آخر؟

يقرأ جمال عبد الناصر تفاصيل الواقعة المذهلة، ويدور الحديث في مجلس قيادة الثورة، يرى عبد الناصر الاكتفاء بأن يقدم القاضيان استقالتهما، خاصة أنهما من عائلات كبيرة، فالشيخ الفيل من أسرة شهيرة بمحافظة البحيرة تنحدر من الأشراف بالسعودية، وهي من نسل الرسول الكريم ﷺ، وتضم أكثر من ثلاثين ألف مواطن مصري، وفيهم ثلاثون على الأقل من الأسرة القضائية وصلوا لأعلى المناصب كرؤساء لمحاكم الاستئناف والجنايات.

لكن مصطفى أمين وصحافة أخبار اليوم التي كانت سباقة في كشف الأسرار مهما كانت التوابع؛ نشرت تحت عنوان " قضية العصر" تفاصيل ما جرى في فيلا السيوف، وهكذا أصبحت القضية على كل لسان. وكان باعة الصحف يملأون الشوارع صياحا: اقرا حادثة القاضي بتاع النسوان يا جدع.

واضطر جمال عبد الناصر إلى التراجع عن قراره السابق ويأمر بإحالة القاضيين إلى المحاكمة .

المحاكمة

كان الشيخ الفيل حزينا مهموما، بينما الشيخ سيف مبتسما ابتسامة تشي باللامبالاة. وكانت السيدتان قد ارتدت كل منهما ملاءة سوداء، لا تظهر منها شيئا، بينما قبع وكيل المحامي في ركن بعيد. والشابان – ابنا صاحب الفيللا – يجلسان بجانب وكيل المحامي وقد تغير شكلهما من الهم والأسى. بينما تجلس شفيقة شاكر في الصف

الأول مجاورة للمحامين. وزوجها الذي ردها لعصمته منذ أيام؛ يجلس في الصف الثاني سعيدا بزوجته يحدث أخته وأم زوجته.

بعد أن فُتحت الجلسة تلا السكرتير قرار الاتهام بصوت عال، وبعد ذلك طلبت النيابة نظر الدعوى في جلسة سرية نظرا لحساسية القضية، فأمرت المحكمة بذلك فانفض الجمع.

نُظرت الدعوى من ثم في جلسات سرية بدأت بسؤال المحكمة للمتهمين عن التهم المنسوبة إليهم، فأنكر القاضيان الاتهام بكل بنوده، لكنه كان رفضا مرسلا، لأنهما لم يبينا السبب في وجودهما في مكان الضبط، ومع سيدات لهن قضايا تنظر أمامهما، ومضاجعة الشيخ سيف لواحدة منهن، وسبب وجود وكيل المحامي، وزجاجات الخمر وأدوات تدخين الحشيش، والحشيش ذاته، ولا رد أحدهما على شهادة الشاهدة – شفيقة شاكر – التي ذكرت تفاصيل دقيقة عما دار حتى الضبط .

وكان اعتراف السيدتين رشيدة فايد ونوال الدسوقي إحكاما لحبل الاتهام على عنقي القاضيين تفصيلا حتى يتمتعن بالإعفاء من العقوبة، ذلك أن قانون العقوبات المصري يعفي من العقوبة الراشي إذا ما اعترف أمام المحكمة بواقعة الرشوة، لأن قصد المشرع من التأثيم عقاب الموظف المرتشي.

كانت شهادات رجال البوليس مماثلة، زاد فيها ما ذكره العقيد عبد القادر محمود من أنه شمّ رائحة السائل الذي كان على الملاءة،

ولما تبين أنه سائل منوي تحفظ على الملاءة ضمن أدلة الدعوى. وجاء في اعتراف السيدة نوال الدسوقي أن القاضي عبد الرحمن سيف قد ضاجعها قبل أن يحدث الضبط .

وأفاضت الشاهدة – شفيقة شاكر – بما دار في " القعدة" من حديث ومن تعليقات الشيخ سيف التي كان يضحك من ترديدها وهو في قفص الاتهام .

بدأت المرافعات بالنيابة العامة تؤكد الاتهام وتثبته بالأدلة القاطعة، وتبين التفسير الصحيح لمواد الاتهام، وتلا النيابة دفاع المتهمين الذي كان تحصيل حاصل .

الحكم

صدر الحكم الذي نطق به المستشار البهنساوي وجاء كالآتي:

- الأشغال الشاقة المؤبدة وغرامة ألفي جنيه للشيخ عبد القادر الفيل رئيس محكمة المنشية الشرعية. وبراءته من تهمة الزنا !
- الأشغال الشاقة المؤبدة للشيخ عبد الفتاح سيف وكيل المحكمة وغرامة ألفي جنيه.
- السجن خمس سنوات وغرامة خمسمائة جنيه لكل من الشابين أصحاب الفيلا.
- السجن ٧ سنوات وغرامة ٥٠٠ جنيه لوكيل المحامي الشرعي.
- براءة جميع النساء!

محاكمة الطاغية جورج فلبيدس

قضية المخنثين

صيف سماء القاهرة صافٍ، والناس يطردها الحر في البيوت فتخرج إلى الشوارع بحثا عن نسمة هواء. وأحس إبراهيم الغربي برغبة في الخروج إلى الشارع. ارتدى ملابس النساء، ووضع باروكة فوق رأسه، ودهن وجهه بالمساحيق، ووضع قطعاً من القطن في صدره، وشد فوقها مشداً للصدر، ولبس حذاء عالياً، ووضع الحلي في رقبته وأذنيه وذراعيه واستقل عربة حنطور قائدها يتعامل معه ومع والده – الغربي – ملك بيوت الدعارة في القاهرة – ينقل النساء من مكان إلى آخر.

جلس إبراهيم فوق المقعد الكبير وحده، ومد ساقه العارية والخالية من الشعر على المقعد المقابل، وأخذ يلوك " اللادن " وهو ينظر إلى الرجال في رغبة واضحة.

هذه الحالة تشده إليها منذ وقت لآخر، فهو يستطيع أن يحصل على ما يريد في بيوت الدعارة الكثيرة التي يديرها والده، وتساعده فيها أمه وأخواته، لكن الرغبة في الخروج إلى الشارع بهذا الشكل – رغم خطورته – تسيطر عليه ولا يستطيع الإفلات منها.

هو عادة ما يعود آخر الليل دون شيء، لكنه يحس بسعادة، وينام ملء جفنيه، لأنه حقق ما أراد.

يحكون معارفه ومعارف والده إن ما حدث لإبراهيم كان عقاباً مستحقاً لأبيه الذي دأب على إيذاء أولاد الناس، فكان يسرقهم من الشوارع – خاصة الهاربين من أهاليهم – ويجبرهم على ممارسة الفحشاء، ويقدمهم بعد أن ينظفهم إلى زبائنه. وكان حريصاً على أن يبعد ابنه الوحيد عن هذا المجال، لكن الولد انساق إليه وصار واحداً من الراغبين في التعامل مع الرجال.

كانت الحكومة قد قررت إلقاء القبض على المخنثين المنتشرين بحي الأزبكية، لأنهم يجمعون بين التخنث واللصوصية، ووضعهم في معتقل بحلمية الزيتون. فتم القبض على إبراهيم، وصفعوا العربجي الذي يعرفون أنه يتعامل مع بيوت الدعارة . وسحبوا إبراهيم إلى عربة البوليس الكبيرة، فصاح وأعلن إنه ابن الغربي المعروف لديهم، وأن كبار رجال الدولة يتعاملون مع والده، ويزورون بيوته السرية كثيرًا، لكنهم لم يسألوا عنه، ورموه في قسم عابدين؛ توطئة لنقله إلى معتقل حلمية الزيتون.

ذهب والده – الغربي – وقابل مأمور القسم محمد شكيب، وعرض عليه رشوة للإفراج عن ابنه، وحصوله على أمر بألا يعود إلى ارتداء ملابس النساء والتزين بالحلي هو وابنه، فوعده محمد شكيب خيرا، وقال: إنه سيكلم له محمود محمد – مساعد الحكمدار – فإذا لم تكن المسألة بأمر الحكمدار، فهو يحصل له على المرغوب. لكن الحكمدار رفض الإفراج عن إبراهيم الغربي، بل وأمر باعتقال والده أيضا، ورميه في معتقل حلمية الزيتون مع باقي المخنثين.

قابل جورج فلبيدس رئيس المكتب السياسي – محمود محمد – مساعد الحكمدار، وقال له:

– إبراهيم الغربي رجل طيب، وأريد عمل طريقة لإخراجه هو وابنه.

– لكن الحكمدار يكره هؤلاء المخنثين.

جورج فلبيدس من أصل يوناني، تجنس بالجنسية المصرية ودخل الخدمة في عام ١٨٨٥ بوظيفة مترجم، لإجادته الإنجليزية والفرنسية، هو خالٍ من الشهادات الدراسية، لكنه ذكي ونبيه، لذا وصل في عام ١٨٩٦ إلى درجة وكيل قلم. وفي عام ١٩٠٠ عين رئيساً لأقلام الضبط في بورسعيد، ثم مأمور الضبط في المحافظة. وقد أعجب به "هرفي باشا " حكمدار القاهرة فعينه في عام ١٩٠٩ مأموراً للضبط في العاصمة. وفي ١٩١٠ قُتل بطرس غالي – رئيس وزراء مصر – على يد إبراهيم الورداني، فأنشئ المكتب السياسي، وعين مأمور الضبط رئيسا له، وقد نال عطف الحكمدار وثقة مستشار الداخلية، وثقة صاحب الدولة حسين

رشدي باشا – رئيس الوزراء، فقربه منه إلى درجة حسده عليها جماعة الكبراء، ثم أصبح جورج فلبيدس العدو رقم ١ للحركة الوطنية المصرية.

تحدث جورج فلبيدس في البيت مع زوجته أسما بخصوص إبراهيم الغربي. فضحكت بصوت مرتفع؛ عندما علمت بما يفعله هؤلاء المخنثون.

أسما امرأة جميلة ذات جسد رشيق. من مواليد بيروت، تزوجها جورج أيام كان مجرد مترجم، وشاركته رحلة الصعود، فهو يتحدث معها كثيرا عن عمله، وعما يحدث له فيه أولا بأول.

زارهم في تلك الليلة محمود محمد – مساعد الحكمدار – هو يكثر من زيارتهم، وتعد له أسما المأكولات الشامية التي يفضلها الرجل، فزوجته لا تعرف كيف تطهيها.

دار الحديث حول موضوع المخنثين، فقالت أسما لمحمود محمد:

– لماذا لا تتصلوا بأصدقاء إبراهيم الغربي حتي يدفعوا ويفرج الحكمدار عنه.

وبالفعل أرسل محمود محمد إلى أليفة بنت عبدالله التي تدير شبكة دعارة، وجاءت المرأة قلقة، فهي لا تخشى في حياتها إلا مقابلة رجال البوليس.

قال لها محمود محمد:

– أنتم لا تهتمون بإبراهيم الغربي طالما هو في الحبس، أنا والله زعلت علشانه.

– كلنا زعلانين علشانه ولكن ما باليد حيلة.

– انزلي انزلي واطلعي بتلتميت جنيه.

ذهبتْ أليفة بنت عبدالله إلى بيت أسما وأعطتها الثلاثمائة جنيه، كما أوصاها محمود محمد – مساعد الحكمدار.

جورج فلبيدس يكسب كثيرا، فهو يأخذ مبالغ مختلفة من ضباط البوليس نظير ترقيتهم أو تثبيتهم، ومن المعتقلين السياسيين للإفراج عنهم ومن المتحررين في الأعراض لإطلاق سراحهم.

زاد حجم الرجل بعد الحرب العالمية الأولى، والمضاعفات التي نتجت عنها حتى أنه تم خلال شهورها الأولى نفي ٤٩ تركيا و١٦ مصريا إلى جزيرة مالطة، فضلاً عن افتتاح معسكر اعتقال في الجيزة، كان يودع به أي شخص يتعرض لأقل شبهة، وكان تحت إشراف بعض معاوني جورج فلبيدس وعلى رأسهم: محمود محمد أفندي، والصاغ فرانشيسكو لوسكيانو. ونكل جورج فلبيدس بشباب الحزب الوطني، ولفق التهم للأبرياء، وطغى وألحق الضرر والأذى بالعناصر الوطنية. لكن زوجته تحتاج لنقود كثيرة، فهي تُكثر من شراء الملابس، وتدعو إلى بيتها الكثير من رجال المجتمع في البوليس وغيره، وتُكثر من تقديم الأطعمة الشامية – التي تجيد طهيها – إليهم، فما أن حصلت على الثلاثمائة جنيه من أليفة بنت عبدالله حتى أنفقت بعضها، وعندما عاد زوجها في المساء أخبرته بذلك، فلم يعترض، لكن الحكمدار رفض الإفراج عن الغربي

وابنه. فاضطر فلبيدس إلى رد المبلغ إلى صاحبته بعد أن خصم مبلغ عشرين جنيها، كانت زوجته قد أنفقتها.

قضية رشوة الضباط

من سوء حظ جورج فلبيدس أن ضابطاً في الجيش اسمه أحمد سرور الشريف، قد تم نقله إلى البوليس، وتخطوه في الترقية، فنصحه البعض بالذهاب إلى بيت فلبيدس ومقابلة زوجته أسما، فطلبت منه خمسة وسبعين جنيها مقابل ترقيته. وجمع الرجل المبلغ فعلا، لكن أخلاق ضباط الجيش تغلبت عليه، فذهب إلى البكباشي " تيل" – رئيسه الإنجليزي – وقال له:

– إذا لم يتم ترقيتي إلا بواسطة فلبيدس؛ فرجاء أن توصل إليه هذا المبلغ.

ابتسم رئيسه، وقال له:

– خذ المبلغ وسأتصرف.

ذهب رئيسه إلى " رسل " باشا مساعد الحكمدار وأبلغه بما حدث. ووصلت المسائل إلى الحكمدار. لكنه لم يصدق أول الأمر، واعتبر أن هذا من أسباب الحقد على فلبيدس الرجل الناجح.

لكن الكثيرين قدموا شكاوى يتهمون فيها جورج فلبيدس بطلب الرشوة. ولم يكن بالإمكان أن يبقى المسئولون على صمتهم، فوُضع تليفونه تحت المراقبة خلال شهر أكتوبر ١٩١٦، الأمر الذي كشف عنه عامل شركة التليفونات يدعى " ليون كريزيان "، وشهد الرجل بأنه

سمع مكالمات دارت إحداها حول تكليف السيدة أسما لمحمد حربي – مراسلة زوجها – بمهمة مشبوهة، وأن جورج فلبيدس رد على ذلك بالقول: "عظيم، عظيم"، ثم جاءت شهادة أليفة بنت عبدالله التي أكدت بأن جورج فلبيدس أخذ منها ٣٠٠ جنيه، وعندما رفض الحكمدار الإفراج عن إبراهيم الغربي رد المبلغ ناقصا عشرين جنيها. وتم القبض على جورج فلبيدس وزوجته أسما عبدالله والجندي المراسل محمد محمد حربي. ووقفوا جميعا في قفص الاتهام. كان ثلاثتهم يبكون. من يصدق أن جورج فلبيدس الذي أذل الكثيرين يبكي هكذا؟!

محاكمة

اهتمت الصحافة بمحاكمة جورج فلبيدس، الذي ألحق الضرر بالكثير منهم، فاهتموا بمحاكمته وتتبعوا كل ما يحدث فيها وتزاحم الناس على حضور جلساتها تزاحماً شديداً. ترافع عن جورج فلبيدس إبراهيم الهلباوي، وترافع مرسي بك حنا عن أسما. وكامل أفندي البنداري عن محمد حربي.

وحكمت المحكمة بالسجن ٥ سنوات على جورج فلبيدس، وإلزامه بغرامة قدرها ٧٨٤.٥جنيها. وعلى زوجته أسما بسنة سجن.

صفق الجمهور وهتف من أعماق قلبه هتافا عاليا متواصلا بحياة العدالة وصاح في وجه المتهم:

– إلى الجحيم يا مجرم، إلى السجن يا جورج.

وبصقوا في وجهه واستمرت الهتافات المدوية حتى قاده البوليس إلى السجن.

كان يبكي هو وزوجته وبناته. ونظم الشعراء والزجالون القصائد الطويلة معربين عن فرحة الأمة بالقصاص العادل الذي وقع على هذا الطاغية.

الحمير وعالم الأحلام

عالم الأحلام

كان رجب مولعاً بعالم الحمير والجياد، وكل أمله أن يتمكن عندما يكبر من أن يشتري حصاناً كبيرا ليجر عربة بنز يتفسح بها على كورنيش البحر. وكان يتحدث كثيرا عن والده مسعود الذي لديه قسم زبالة في حي سبورتنج. وعن حماره الأبيض القوي.

عندما اشتراه والده كان يعض كل من يقترب منه، ويجن عندما يرى أمامه حماراً آخر، فيشد لجامه، ويهجم عليه يعضه ويرفسه في عنف، حتى خافته حمير الحارة وابتعدوا عنه؛ رغم هذا كان فيه عيبين كبيرين هما: خوفه من رؤية رؤوس البقر والجواميس المعلقة لدى الجزارين، ما إن يراها حتى ينهق ويرتعد، ويُسرع بعيدًا عنها، وخوفه أيضا من المياه، فإذا اقترب من شارع فيه مياه يجفل، ثم يرتد إلى الخلف ويحرن ويمتنع عن التقدم إلى الأمام خطوة واحدة، فينزل عامل مسعود ويضربه دون فائدة. رغم هذا كان رجب يثني عليه كثيرا ويصفه بالشجاعة والقوة. وينتقص من قيمة حمار زوج عمته الذي يسكن معهم في نفس البيت، كان أسود وأكثر طولا وعرضا من الحمار الآخر، لكنه هادئ ولا

يجري أبدا على الشر. إذا ما قابله حمار مسعود بنهيقه وثورته؛ يبتعد في هدوء وكأن شيئا لم يحدث. كان رجب يقول عنه: إنه أناني وجبان.

يذهب سعد مع جده عبد العال (زوج عمة رجب) إلى قسم الزبالة الذي يمتلكه في حي محرم بك، والذي يبدأ من خلف شارع عرفان من ناحية شارع الإسكندراني، وينتهي بعد المحكمة، سكان هذه المنطقة من الطبقة المتوسطة التي لا تدفع أجرة كبيرة، بعكس سكان قسم زبالة مسعود الذين يدفعون أكثر، خاصة الخواجات الذين كانوا موجودين وقتذاك. مازال سعد يذكر هذه الأيام، الصباح المبكر، وجده عبد العال بقامته القصيرة، ووجهه الجميل المائل للاحمرار، وطاقيته التي كانت قبعة وجدها في الزبالة؛ ففردها وغطى بها رأسه، وبنطلونه الطويل دائما، الذي يثنيه ثنيات كبيرة واضحة، وجلوسه على عريش العربة الفارغة، ويصعد ابنه جابر وسعد ابن ابنته إلى صندوق العربة المرتفع يتمازحان، أو يتشاجران داخل العربة.

يقود عبد العال العربة، ويتوقف أحيانا أمام بائعة "كسكسي"، فلاحة بيضاء تقف في تقاطع شارعي محمد العباسي المهدي والأمير أحمد رفعت، تصحو مبكرة لتلحق الزبالين قبل الذهاب إلى أعمالهم، ودكان عم يس المواجه لمحكمة محرم بك. الرجل يحب عبد العال، يمازحه طوال الوقت، ويقدم إليهم الإفطار؛ شاي بلبن وعيش فينو من فرن في شارع الإسكندراني القريب جدا، أو شوربة العدس والفول والطعمية، ويبدأ العمل .

جابر، خال سعد، الذي يكبره بعام واحد يعرف أصول المهنة أكثر منه، لابد أن تحمل القفة الكبيرة فوق ظهرك وتصعد بها فارغة إلى الدور الأخير، ثم تبدأ في حمل الزبالة وتهبط بها.

ضغط سعد على جرس الباب، ففتحت امرأة شابة سمراء، نظرت إلى ذلك الطفل الصغير الممتلئ في دهشة، قال في خجل: الزبالة.

فضحكت المرأة بصوت مرتفع ونادت أختها الكبيرة التي في الداخل قائلة:

- شوفي عبد العال جايب لنا إيه.

وجاءت الأخرى مسرعة، وقفتا على الباب تضحكان لرؤية ذلك الزبال الصغير.

كان حمار عبد العال الأسود الطيب يجر العربة المُحملة بالزبالة الثقيلة، ويقف في مكان كل يوم دون مساعدة من أحد، فهو يعرف الأماكن التي سبق أن حددها عبد العال للوقوف: أمام خرابة، ثم قريبا من بيت أم بعجر المواجه لمدرسة صلاح الدين، بعيدا عن النوافذ والشرفات. يقف الحمار أمام هذه الأماكن، فيضع عبد العال له طعامه، وعندما يرفع الطعام عنه، يعرف الحمار المطلوب منه، فيسير دون قول، ويقف دون قول، بجوار بيت امرأة مجنونة تقف في الشرفة وتحدث نفسها وتصيح. بعد أن يحملوا زبالة القسم كله، يركب سعد فوق العربة، ويجلس عبد العال على العريش، وأحيانا يجلس جابر - ابنه - بجواره، ويذهبون إلى المقلب على ترعة المحمودية ليلقوا الزبالة هناك. ويبدأ الفرز، الورق يوضع في أجولة من الخيش. والأقمشة المهترئة توضع في

قفة كبيرة، والزجاجات والعلب الفارغة توضع في قفف كبيرة.. إلخ . بعد ذلك يحملون هذه الأشياء ويذهبون بها إلى تاجر الورق، وتظل الزبالة المتبقية في مكانها، فهناك يربون الخنازير التي ترتع وتأكل من هذه الزبالة، والمتبقي يبيعه عمال المقلب إلى الفلاحين ليتخذونه سماداً لأراضيهم.

عندما يشم سعد رائحة الزبالة المتجمعة في مكان لمدة طويلة يتذكرهذه الأيام.

لم يتحقق لرجب ما أراد، فبعد حصوله على شهادة الثانوية العامة، كانت البلاد في عز النكسة، نتيجة لهزيمة مريرة من إسرائيل، والدولة في حاجة إلى طيارين كثيرين، فقبلوه في كلية الطيران، وارتدى بذلة طلبة الكلية الجوية وسط دهشة أهالي غربال الذين أحسوا بأن عالماً جديداً ينتظر المنطقة، لكن لسوء الحظ فُصل من الكلية لأنه لم يحس بالأرض عند هبوطه بالطائرة، وأشاعت بعض النسوة هناك أنهم فصلوه بعد اكتشاف مهنة والده، فكيف يكون طيارا ووالده يعمل زبالا؟ !

عربات الزبالة وحرب ٥٦

تقف عربات الزبالة في غربال أمام معظم البيوت، ترفع عريشيها لأعلى، كل عريش يحيط به طوق من الحديد، فيبدو وهو معلق هكذا وكأنه فوهة مدفع. لذا خاف الناس أيام حرب ٥٦ وقالوا: أنزلوا سيقان هذه العربات لأسفل خشية أن تظنها طائرات العدو مدافعا، فيدكون المنطقة بالقنابل.

وبالفعل نزلت أعرشة العربات إلى الأرض، ولم ترفع إلا بعد أن انتهت الحرب. وتكرر هذا في حرب ٦٧ أيضا.

عند المغرب يأخذ عبد العال حماره الأسود الطيب مثله إلى أعلى الجبل، حيث التراب بكثرة ليتمرغ هناك ويرفس بساقيه الأربعة وينهق براحته، هكذا يتمطع الحمار ويسترد قوته التي أُنهكت طوال ساعات العمل الطويلة. وهكذا يفعل كل أصحاب الحمير في المنطقة، (لكن البلدية صنعت سلالم بازلتية، ووضعت ثلاث حدايد في أعلى الجبل حتى لا تقع السيارات من أعلى، فحرمت الحمير من التمرغ والراحة) بعدها يجر عبد العال الحمار إلى إسطبل نزهة وهو مصنوع من الصفيح ومضاء بلمبات جاز خابية الضوء في الأركان. وتستيقظ الحارة في الصباح على صياح، نظنه أول الأمر مشاجرة من المشاجرات الكثيرة التي تحدث، ونكتشف بعد ذلك أن أحد الحمير هرب من إسطبل نزهة.

هكذا الحمير، يخطر ببالها أن تهرب وترتاح ليوم أو يومين، فيشد الحمار الحبل المربوط فيه، ويهرب من باب الإسطبل المفتوح دائما ويجري بعيدا، وعندما يحس أنه ابتعد عن منطقة الخطر؛ يسير على مهله. ويجول بين الحدائق، ويأكل كما يشاء. يبحثون عنه، ويحس صاحبه بالأسى فكيف سيذهب اليوم إلى عمله، يبحث عن حمار آخر يشده مكان حماره الهارب، وفي معظم الأحيان لا يذهب إلى عمله في ذلك اليوم الذي يقضيه في البحث عن حماره. وفي كثير من الأحيان

يعود الحمار وحده، يسير في العودة على مهله، يدلدل أذنيه، وينظر إلى الأرض كسيفاً، ويدخل الأسطبل دون قول، ويقف في مكانه كما كان.

آخرون يمتلكون الحمير في غربال

ليس الزبالون وحدهم الذين يمتلكون الحمير في غربال، فهناك طبقة جديدة ظهرت فعندما لا يجد الشاب عملاً؛ يشتري حمارًا وعربة كارو ويعمل عربجياً، ينقل الأمتعة، أو يذهب إلى وكالة الخضار والفاكهة في الحضرة، ويتعامل مع تجار سوق الخضار والفاكهة. بعض هؤلاء كان يذهب بحماره إلى محطة مصر ليؤجره للأطفال في الأعياد، يضع فرشاً فوق ظهره، ويمسك عصا رفيعة، ويركب الأطفال، ويطوف بهم حول حدائق محطة مصر نظير قروش قليلة. لكن الزبالين لم يفعلوا هذا، فحميرهم لا تعمل إلا في نقل الزبالة.

وكان معنا صديق والده يعمل ملاحظ كناسين، كان مجنوناً بالحمير، فيعرض على أصحابهم أن يأخذهم ويذهب بهم إلى أعلى الجبل ليتمرغوا ويرتاحوا، أو يوصلهم لإسطبل نزهة وكانت تخطر له أفكار غريبة، فمرة يضع قرن فلفل حار جدا في مؤخرة حمار وهو يجر العربة، فيأخذ الحمار في القفز بالعربة حتى يكاد يحطمها، ويجري في الحارة ويصطدم بالأشياء. ومرة ضربه أحد أصحاب الحمير لأنه يركب حماره دون أذنه، كانت صفعة الرجل قوية، فأقسم أن ينتقم منه، وفي اليوم التالي دق مسمارا في ظهر الحمار، حتى سوس عظمه، وباعه الرجل بأبخس الأثمان، وهو يدعو على ذلك المؤذي الذي أذاه.

الزبالون يخافون من العُرضي

يخاف الزبالون من أشياء كثيرة في عملهم، أول هذه الأشياء هو الطوربيل، فقد كانت البلدية تطاردهم بسيارة نقل كبيرة، فيرمون أجولتهم وقففهم بعد أن تمتلأ بالأشياء التي يجدونها في الزبالة، إلى طوربيلهم الكبير، والشيء الثاني هو اتهامهم بسرقة أي شيء يضيع في منطقتهم، ما أسهل كلمة (اقبضوا على الزبال). وهناك حكايات كثيرة حدثت في المنطقة أتهم فيها الكثير من الزبالين بالسرقة، وبعد أن ضُربوا وعذبوا عادوا إلى بيوتهم، ولم يحدث أن أدين زبال واحد بالسرقة. فهم لا يمكن أن يسرقوا، كيف يسرقون في أماكن (أكل عيشهم)؟ والشيء الثالث الذي يخافه الزبالون هو العُرضي الذي كان في حي محرم بك، قريبا جدا من قسم زبالة عبد العال (مكانه الآن مساكن شعبية) يسير عسكري شرطة، ومعه سايس يحمل لجاماً في يده، ويوقفون العربات التي تجرها الحمير أو الجياد، يفتشون فيها، يرفعون أسرجتها عن ظهورها، فإذا وجدوها مريضة أو مجروحة في أي مكان من جسدها، يخلعونها عن العربة، ويضع السايس لجامه في رقبة الحمار أو الجواد ويأخذه إلى العُرضي. حينذاك يجر الزبال ومن معه العربة الثقيلة إلى البيت، أو مكان رمي الزبالة ويقضي الرجل أياماً عصيبة حزينة، تؤثر على بيته كله، فالحمار سيبقى في العرضي يعالجونه إلى أن يُشفى، ثم يذهب لأخذه، فيقدمون إليه فاتورة العلاج التي عادة ما تكون ثقيلة لا يقدر عليها، لكنه يفرح بذلك فحماره العزيز سيعود إليه. وقد حدث أن أخذ مسعود سعدا إلى العرضي، وتسلم حماره الأبيض القوي الشرس، وقال لسعد:

– اصعد فوق ظهره وعد به إلى إسطبل نزهة لأني ذاهب إلى مشوار.

لكن سعدا خاف أن يركبه، وشده من الحبل المعقود في رقبته حتى الإسطبل.

(الذي منع سعد من ركوبه ما حدث له عندما ذهب مع الأسرة بعد حرب ٥٦ إلى الصعيد، فقد ركب حمارًا فأخذ الحمار يقفز قفزات عالية حتى يزحزحه عن ظهره إلى أن ألقي به على الأرض)

مَرْعِي يعود إلى غربال

عندما يأخذ العرضي حمارا يبحث صاحبه عن مَرْعِي، فهو الحل الوحيد في مثل هذه الحالات. ومرعي هذا شاب قوي جدا، وجهه مستدير وجميل، شعره أصفر وعيناه واسعتان عسليتان، وشاربه أصفر، يرتدي ملابس قديمة، وطاقية من الصوف بأذنين يغطي بها أذنيه صيفا وشتاء. يذهب صاحب الحمار للبحث عن مرعي على المحمودية، حيث يعيش مع امرأة هناك دون زواج، هي بدينة وأكبر منه، وتسكن كوخاً مقاماً على حافة الترعة دون ترخيص أو إذن من البلدية، (تأتي الحكومة من وقت لآخر وتهدم تلك الأكواخ الكثيرة المقامة، لكن بعد أيام قلائل يعودون لبنائها ثانية) الزبالون لا يلجأون إلى مرعي إلا للشديد القوي، والشديد القوي هو العُرضي الذي أخذ حميرهم. فمرعي عبء على من يعمل عنده. هو وحده الذي يستطيع جر عربة زبالة ثقيلة خاصة في الصيف حيث يكثر قشر البطيخ الثقيل. مرعي يأكل كثيراً طوال وقت العمل، وجسده قوي وكبير، كما أنه يتعب الزبال الذي يعمل عنده، فلابد

له من ميزانية خاصة، وبعد أن يعود بالعربة يجلس أمام باب شقة صاحب العمل، يعطيه الرجل أجرته وأكثر منها، ويقول له:
– تعال في الغد بعد الفجر بقليل.

ليفهم مرعي أن المهمة انتهت وعليه أن يعود إلى جسد المرأة وكوخها على المحمودية. لكنه لا يتحرك من مكانه، يظل مبتسماً في بلاهة كعادته، ويجلس في مواجهة باب الشقة المفتوح، فيقدمون إليه الطعام، يأكله في الخارج، وبعد أن ينتهي من أكله يظل في مكانه، فيقدمون إليه الشاي. الزبالون الذين تضطرهم ظروفهم للاستعانة بمرعي يخافون على زوجاتهم منه فهو وسيم جدا وقوي جدا، والمرأة لا تريد أكثر من ذلك. لهذا تكون أيام صاحب الحمار المعدودة– حتى يعود حماره من العرضي– أياماً صعبة ويكون في غاية التعب والقلق والعذاب.

ذكاء الحمير

قرأتُ وأنا صغير حكايات صبري موسى، قرأتُها متفرقة في مجلة صباح الخير، ومازلت أذكر أول حكاية فيها، عن رتل عربات كارو تنقل الخضار والفاكهة الآتية من القليوبية في الليل. حمار يجر عربة وخلفه باقي العربات الذين يقودون هذه العربات ينامون فوقها. والحمير اعتادت على السكة وتسير فيها دون معاونة من أحد. تصل هذه العربات إلى سوق الخضار والفاكهة في الصباح المبكر، لكن رجلاً سكراناً، طلعت في رأسه فكرة، فأمسك أول حمار وشده إلى عرض الشارع لكي يعود ثانية إلى الطريق الذي جاء منه. فعادت العربات إلى القليوبية. وعندما استيقظ الرجال الذين كانوا ينامون فوق العربات، وجدوا أنفسهم في

قريتهم في القليوبية، وهكذا كان يفعل حمار عبد العال، يسير دون معاونة من أحد ويقف في الأماكن التي سبق أن حددها له .وحدث أن قبضت الشرطة في الصعيد على حمار محمل بالأسلحة وهو يسير وحده، فأخذوا الأسلحة عنه وتركوه، فعاد إلى بيته، فعرفوا الذين وضعوا الأسلحة فوق ظهره وقبضوا عليهم. وحكى لي رجل كان يمتلك حماراً ينقل به بضاعته، ثم استغنى عنه بسيارات النقل، فوضعه في أسطبل وأوصى عماله به خيرا، لكنهم أهملوه وتركوه دون أكل، فذهب لزيارته، فإذ بالحمار يبكي في أسى ويتمسح فيه، فصاح في عماله غاضبا:

– مزعلين الحمار ليه؟!

ثم ربت على رأسه وقدم إليه الطعام مواسياً، ووعده بأن هذا لن يتكرر. وحكى لي آخر، يمتلك عربة كبيرة يجرها حمار، أنه قرر أن يبيعه ليفك أزمته المالية، فإذا به، ولا يدري ما الذي أخبره بما نوى أن يفعله صاحبه، قد اقترب منه، وأخذ يمسح برأسه في ظهره وكتفه، فقام الرجل وضمه لصدره قائلا:

– لن أبيعك مهما حدث.

ورأيتُ في سوق الجمعة، حيث يقف الباعة في يومي الخميس والجمعة لبيع الأشياء القديمة، فتزدحم الشوارع بالباعة وبالأشياء وبالمشترين، وتقف عربات تجرها الحمير والجياد في طريق ترام (٦) التي تبدأ من قصر رأس التين وتنتهي في محرم بك. تأتي الترام، فيضغط سائقها على الجرس، فيبتعد الحمار بعربته ليفسح مكاناً لسير الترام وبعد

أن تمر يعود وحده ليقف في مكانه. كل هذا وصاحبه يتابعه وهو جالس مع باعة الأشياء القديمة يحدثهم ويسامرهم.

وحدث أن ضحى حمار بنفسه لينقذ الناس، فقد تجمعت المياه أسفل كوبري سموحة، وهي عادة ما تتجمع هكذا أيام المطر الغزير لدرجة أن ساكني هذه المنطقة يتعذر عليهم الخروج من بيوتهم والذهاب إلى أعمالهم، وكان يقف بعض الرجال يلبسون في أرجلهم أحذية طويلة، ويحملون الرجال والنساء والأطفال، ويعبرون بهم هذه المنطقة نظير أجر قليل. حدث في هذه المنطقة أن غطت المياه الأسلاك الكهربائية العارية، فأدى هذا إلى كهربة الأرض، ومرت عربة كارو في هذه المنطقة، فصعقت الكهرباء الحمار ومات في الحال، فعرف الناس أن هذه الأرض مكهربة، فتعاملوا معها على هذا الأساس، ولولا الحمار لمات الكثير وهم يعبرون .

الغريب، رغم كل هذا، أن يرتبط الحمار بالغباء، ويقول يحيى حقي في كتابه الجميل وجدت راحتي مع الحمير:

الحمار عينيه ذليلة وحزينة وتكاد تترقرق فيها الدموع، ليس في صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة. إنها صرخة عذاب واستغاثة وإشهاد الناس في نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء، ثم تذوب كأنها لم تكن.

كيف عانت مصر من أزمة الحمير

قال محدثي مندهشاً:

– ألم تلاحظ أن عدد الحمير قل هذه الأيام؟.

قلت: ربما لأن سيارات النقل زاد عددها، فقل الاعتماد على الحمير.

قال لي: ذهبت إلى سوق الحمير، فلم أجد حمارا واحدا يصلح للعمل.

(يعقد كل يوم أحد سوقا للحمير في حي المنشية، بجوار مستشفى بروك الخيري لعلاج الحيوانات – وبجوار المستشفى بيطار يقوم بتغيير حدوة الحمار، وبيع لوازمه)

واكتشفت بعد ذلك سر اختفاء الحمير.

فقد جمع الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات كل الحمير الموجودة في بلده وأرسلها إلى مصر – هدية – لكن بعض التجار الكبار علم أن المحاربين الأفغان الذين يحاربون الروس في حاجة إلى البغال والحمير لكي تتسلق الجبال الوعرة حاملة السلاح والطعام والعتاد، فاشتروا كل ما يجدونه منها، وباعوه لسماسرة الحروب. وبهذا قل عدد الحمير في مصر.

البحث في الأوراق القديمة



يقول الأستاذ يوسف فهمي الجزايرلي في كتابه " موسوعة تراجم الأعلام الذين تحمل الإسكندرية أسماءهم " ، المنشور في فبراير ١٩٧٣، في الترجمة الخاصة بإبراهيم الأول (الحاكم الثاني بعد حكم محمد علي باشا لمصر): إنه (أي الجزايرلي) قد ترجم فصول أحد الكتب الأجنبية المتعلقة بمحمد علي وإبراهيم وعباس الأول وسعيد وإسماعيل. ويحكي حكاية هذا الكتاب العجيب. فهو للمسيو بريس دافين أحد المفكرين الذين صاحبوا حملة نابليون بونابرت على مصر ومكثوا في البلاد بعد رحيل الحملة، وكان هذا الرجل مقرباً في بلاط محمد علي فألف كتابه " بعض الذكريات السرية الخاصة بالبلاد المصرية "

وقد وُجد هذا الكتاب بين كتب مكتبة الأمير عمر طوسون التي وهبها لمكتبة المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، ويقال إن عمر طوسون كان ينوي حرقه قبل وفاته، لأنه يسيء إلى أجداده، ويكشف عن المستور في حياتهم الخاصة، لكن يظهر أنه لم يفطن لذلك قبيل وفاته؛ فتسرب الكتاب إلى مكتبة المتحف.

وقد نشرت مؤسسة أخبار اليوم في سلسلة كتاب اليوم العدد ٣٢٣ في يوليو ١٩٩١، أي بعد حوالي ثمانية عشر عاماً من نشر كتاب الجزايرلي، أيام كان يشرف على تحريرها الأستاذ جمال الغيطاني؛ كتاباً بعنوان إدريس أفندي في مصر، واتضح لي أن إدريس هذا ما هو إلا " بريس دافين " الذي سبق أن تحدث يوسف فهمي الجزايرلي عنه في كتابه، وترجم بعض فصوله.

فقد عثر الدكتور أنور لوقا – الأستاذ المصري بالجامعات الفرنسية – على مذكرات تاريخية ضمن مؤلف ضخم بالفرنسية يتكون من أربعة عشر مجلدًا عن مصر للمهندس والفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين. الذي وفد على مصر في أواخر عهد محمد علي، ومكث بها إلى أواخر عهد الخديو إسماعيل، وخلال إقامته بمصر أشهر اسلامه وسمى نفسه إدريس أفندي.

يذكر المؤلف الفرنسي حادثة عن إبراهيم الأول، فيقول:

كان من عنفه أن عثمان بك أحد المحظوظين لديه جاء يُقبل يده، فأمره بأن يقضي ليلته في السفينة " جهاد أباد " وبعد أن استهزأ بلحية عثمان الطويلة لم يتورع من أن يغمس وجهه في سلطانية بها ماء مسكر في درجة الغليان، ثم أخذ يقهقه بملء شدقيه.

ويقول المؤلف الفرنسي أيضا:

والملاوطة رذيلة شائعة جداً في مصر لاسيما بين الأتراك الذين لا يتحرجون من مزاولتها جهراً .

وقبل حرب " المورة " عندما كان إبراهيم باشا حاكماً للصعيد كتب إلى القاهرة يطلب حضور حريمه، ولكن والده – محمد علي – أرسل إليه بدلا من نسائه؛ مماليك أحداثا قائلاً له:

إن رجل الحرب لا ينبغي أن يكون له من حريم غير هؤلاء.

يقصد أن النساء ستشغله عن الحرب، وستتنافس كل واحدة منهن على التقرب منه، والسيطرة عليه، وسيشغلونه عن الحرب التي جاء الصعيد من أجلها.

وهذا ما يقوله بلتازار أحد أبطال رواية " رباعية الإسكندرية " للورنس داريل، فقد كان مصاباً بالشذوذ الجنسي، فيقول عن نفسه إنه ارتاح من حالة العشق والتفكير في المحبوب ومن الضنا والسهر. فعلاقته بالرجال، تنتهي بعد العملية الجنسية، فلا يتبعها تفكير ولوم وعتاب.

وحكاية أخرى عن أحد المقربين من الوالي محمد علي، اسمه مصطفى مختار بك، مولود بقولة – مسقط رأس محمد علي – تحكي أن الوالي العادل قد أصدر أوامره برعاية الحقوق الطبيعية للإنسان، وإن كان قد مجده البعض لأنه أراد أن يفرض على جميع رعاياه – بلا تمييز – شريعة حامية، ووصاية بها إدارة منتظمة للقضاء.

ولنعود إلى مصطفى مختار – بلديات الوالي محمد علي – فقد أعجب بفتى مصري من خدمه، لكن الفتى صده وامتنع تماماً على التجاوب معه، فأمر مصطفى مختار بأن يُضرب حتى مات التعس تحت العصا.

وعندما علم الوالي العادل محمد علي باشا، غضب على بلدياته وأمره بأن يدفع لأهل المقتول – دية – قدرها ٥٠٠ قرش، وهو مبلغ أقل من مرتب مصطفى مختار عن يوم واحد. فقد كان في رأي الوالي العادل محمد علي باشا، إن رأس فلاح مصري لا تساوي شعرة من رأس تركي.

ويقول بريس دافين – أو إدريس أفندي – عن الوالي عباس حلمي الأول الذي تولى الحكم في ٢٤ نوفمبر عام ١٨٤٨ بعد موت عمه إبراهيم الأول فجأة:

أما أخلاق عباس، فكانت كأخلاق جميع سلاطين الشرق، حيث يدلل الغلمان أكثر مما تدلل الجواري، لقد كان عباس يستسلم لمجونه في الخفاء مع مماليكه الذين يجعلهم يؤلفون حلقة لإمتاعه، لكن كرامته تأبى عليه أن يكون الأداة السلبية للذة عبد أو فلاح.

أما عن موته فيقول بريس دافين: إنه كان قد دخن في الليلة السابقة لموته " جوزة " محشوة بالشيرا (وهي مستحضر من الحشيش) ثم نام نوماً عميقاً، فانتهز القتلة تلك الفرصة، وعلى الرغم من ارتكاب القتل في قصر بنها الذي كانت تحرسه قوة كبيرة من الحرس؛ لم يعترض أحد سبيل القتلة في فرارهم.

أما عبد الرحمن الرافعي فيقول في كتابه عصر إسماعيل (الجزء الأول):

ولدينا عن مقتل عباس روايتان، إحدهما ذكرها إسماعيل باشا سرهنك في كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار جزء ٢) وتقول:

إن (عباس) كانت له حاشية من المماليك يقربهم إليه ويصطفيهم، ويتخذ منهم خواص خدمه، ولهم عنده من المنزلة ما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية، على غير كفاءة يستحقونها، وكان لهم كبير من خاصة غلمانه، يسمى خليل درويش بك، وقد أساء معاملة أولئك المماليك، فاستطالوا عليه بالغمز واللمز، وخاصة لأنه صغير السن، فاتخذوا من حداثته مغمزا للأقاويل، فسخط عليهم، وشكاهم إلى مولاه، فأمر بجلدهم، فجلدوا وجردوا من ثيابهم العسكرية، وألبسهم خشن اللباس، وأرسلهم إلى الإسطبلات لخدمة الخيل، لكن مصطفى باشا – أمين خزانة عباس – أشفق عليهم ، فطلب العفو عنهم، فاستجاب عباس وعفا عنهم، وردهم إلى مناصبهم، فجاءوا إلى بنها ليرفعوا واجب الشكر للوالي، ولكنهم أضمروا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم، فائتمروا به مع غلامين من خدمة السراي، يدعى أحدهما عمر وصفي، والآخر شاكر حسين، واتفق الجميع على قتله، وكان من عادة عباس – عند نومه – أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه، وفي ليلة ١٤ يوليو ١٨٥٤ كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته، فجاء المؤتمرون وهو نائم، فقتلوه ثم أوعزوا إلى الغلامين بالهرب فهربا.

والرواية الثانية عن مقتل عباس الأول ترويها مدام أولمب إدوار في كتابها: "كشف الستار عن أسرار مصر" وخلاصتها:

إن الأميرة نازلي هانم عمة عباس كانت في الأستانة وأرسلت مملوكين من أتباعها لقتله، واتفقت وإياهما على أن يعرضا أنفسهما في سوق الرقيق بالقاهرة، كي يشتريهما عباس ويدخلهما في خدمته، وكان المملوكان على جانب كبير من الجمال، مما يرغب وكيل الوالي في شرائهما. فقد كانت الأوامر أن يختار الوكيل أشد الغلمان جمالا.

فجاء الغلامان إلى القاهرة ونزلا سوق الرقيق ورآهما مندوب الوالي، فراقه جمالهما، فاشتراهما وأدخلهما سراي مولاه ببنها، فأعجب عباس بهما، وعهد إليهما بحراسته ليلا، فما إن استغرق في نومه حتى انقضا عليه وقتلاه، ثم نزلا إسطبلات الخيل الملحقة بالسراي، وطلبا إلى السائس أن يجهز لهما جوادين فوراً بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره في العباسية، فسارا بالجوادين عدواً إلى القاهرة، ومن هناك فرا إلى الأستانة، حيث نقدتهما نازلي هانم مكافأة سخية على إنفاذ المؤامرة.

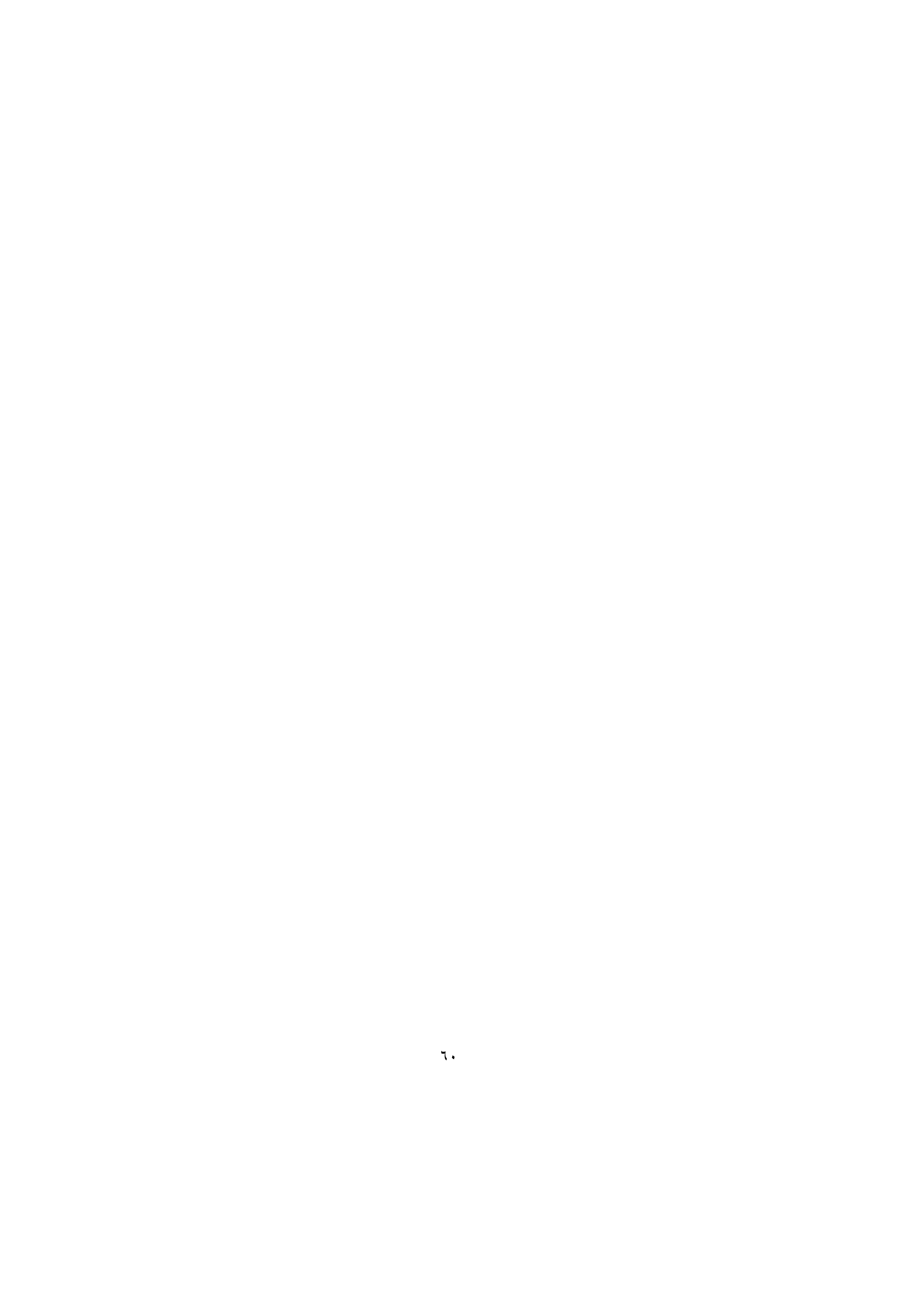
ويقول بريس دافين عن الوالي سعيد الذي تولى الحكم بعد موت ابن أخيه الوالي عباس حلمي الأول:

وسعيد خفيف العقل، قليل التبصر، يتحدث عن شئونه أمام الأجنبي كأنه يتحدث إلى أمين سره، وهو فوق ذلك شديد النزق، ومن كان حظياً لديه يوماً لا يظل في حظوته تلك أمداً طويلاً.

وحل محل الجيش الباسل – الذي أرغم السلطان العثماني على التسليم ؛ جيش من الماجنين يتعذر أن يسود فيه النظام إذ تسود فيه الحظوة أولاً، وإلى جانب جنود يلبسون الأسمال؛ يرى المرء كتيبة فاخرة

من الغلمان تمثل دور الجندي أثناء النهار، وتؤدي أدوار الفجور أثناء الليل، فالجيش منتخب قبل كل شيء لغرض إرضاء شهواته الدنيئة.

وقد اعترض شيوخ القرى الذين اختار سعيد أولادهم للجندية على إرسال أبنائهم إليه، فأمر بشنقهم، فقد كانوا يريدون إنقاذ أبنائهم من مجون الوالي سعيد الذي يجند الجنود ليملأ بالغلمان حريماً له.



العقدة اليهودية بين أوديب وإخناتون

يـرى إيمانويـل فليكوفـسكي المـؤرخ اليهـودي فـي كتابـه "أوديب وإخناتون " الذي ترجمه فاروق فريد" أن ما يحكى عن أوديب ليس مجرد أسطورة؛ وإنما هي حقيقة حدثت بالفعل وأن " باوساياناس "، الرحالة المعروف، يزعم أنه رأى مقابر بالقرب من بلدتيّ طيبة وكولون اليونانيتين. وأخبره الناس هناك أنها مدافن عائلة أوديب ".

لكن إيمانويل فليكوفسكي يُكذب هذا، رغم إيمانه بأن أوديب شخصية حقيقية؛ وجدت في الحياة، لكنها خلال عصور أبعد من ذلك بكثير. وأن أصل قصة أوديب المشهورة يستحيل العثور عليها بين طيات كتب التاريخ، وإنما في القصص الشعبي المستوحاة من أحداث وقعت وتناولها الناس في أحاديثهم عبر أجيال عديدة؛ ثم أضافوا وبدلوا فيها .

وأن أسطورة أوديب ليس غريبا حدوثها، ففرويد، عالم النفس الشهير، يرى أنها نبعت من رغبة محسوسة تكمن في الابن وتدفعه إلى الاستحواذ على أمه والإطاحة بأبيه متبعًا وسيلة القتل، كما في العصر الحجري حين كان أبناء رجل الكهف البالغون يقتلون أباهم ليستحوذوا على زوجاته اللائي هن أمهاتهم .

وكما أن تصرفات مرضى الأعصاب وما تحتويه أحلامهم وأفعالهم أحيانا تؤيد نظرية فرويد الثابتة علميا كما هو مثبت في تقارير حالات مرضية لا حصر لها .

إن عقدة رغبة الأبناء في أمهاتهم كانت معلومة للأقدمين، ففي التلمود يرى النبي إسماعيل أنه رأى رجلا في المنام يصب زيتا على شجرة زيتون، وأن تفسير هذا الحلم أن لدى الرجل رغبة في إنشاء علاقة جنسية مع أمه .

وتقول جوكاست لأوديب وهي تجهل أنه ابنها " لا تخشى التزوج بأمك، فغالبا ما يحلم الرجال بمثل هذه الأمور. ولكن من لا يعيرها اهتمامه يعش سعيدا ".

وقد وردت أسطورة أوديب بأوديسة هوميروس في نشيدها الحادي عشر عندما زار أوديسيوس العالم الآخر والتقى بأم وزوجة أوديب .

ومن الضروري هنا أن نتناول بإيجاز أسطورة أوديب لإمكان عقد مقارنة بينها وبين الأحداث الحقيقية التي يدعيها إيمانويل فيلكوفسكي في كتابه .

كان لايوس ملكا على مدينة طيبة فطُرد منها، ولجأ إلى ملك طنطالة. ثم عاد لايوس إلى مدينته طيبة بعد أن خطف ابن الملك الذي استضافه وأحسن إليه وأعانه في شدته، مما حدا بالابن المخطوف إلى الانتحار بعد ما فعله لايوس من خطيئة .

ويتزوج لايوس من جوكاست، ويعيش معها عيشة هنيئة منتظرا قدوم الابن الذي سيرثه في الحكم والذي تأخر مقدمه كثيرا وعندما يسأل

لايوس العراف عن ذلك، يخبره بأنه نتيجة لفعلته مع ابن ملك طنطالة؛ سيرزق بولد سيعيش ويكبر حتى يقتله ويتزوج أمه .

وبالفعل يرزق لايوس وجوكاست بطفل، فيخرقان قدميه ويربطانه منهما ويعطيانه إلى خادم لكي يلقيه في جبل" كثيرون" لتفترسه السباع هناك. لكن الخادم أشفق على الطفل فسلمه إلى راع، أخذه إلى ملك" كورنثة" الذي اتخذه ولدا، وسماه أوديب لتورم قدميه .

بعد أن يكبر أوديب يخبره العراف بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه، فيهرب أوديب بعربته من بلدته لكي لا تتحقق النبوءة ويقابله لايوس بعربته أيضا؛ خارجا من طيبة باحثا عن حل للعنة التي حلت ببلاده، إذ حل بها وحش في صورة أبو الهول .يسأل الناس لغزا: فمن لم يستطع حله؛ يقتله .

تصادمت عربتا أوديب ولايوس. فتشاجرا، حتى قتل أوديب والده ودخل طيبة. فقابله أبو الهول في أول المدينة، حيث يمكث، فسأله عن الشيء الذي يمشى على أربع ثم اثنتين، ثم ثلاثة. فقال أوديب "الإنسان. حيث يمشي في طفولته على أربع، ثم اثنتين، ثم ثلاثة عندما يستعين بالعصا."، فمات الوحش كمدا، وكافأه أهل طيبة بأن زوجوه من ملكة بلادهم جوكاست .

ويعيش أوديب هانئا مع زوجته، وينجب منها أربعة أبناء: بولينكس، وتيتوكليس، وأنتيجونا، وأسميتا. لكن وباء كاد يهلك كل شيء في البلاد. فيذهب البعض لسؤال العرافين عن ذلك، فيخبرونهم بأن ملكهم هو

سبب البلاء، لأنه تزوج أمه بعد أن قتل والده، فيفقأ أوديب عينيه، وتقتل جوكاست نفسها .

إخناتون والعقدة اليهودية

اعتادت الأسرة الثامنة عشرة التي ينتمي إليها إخناتون ووالده أمنحوتب الثالث، أن تستشير العرافين فيما يتعلق بالخلافة. وأن هذه العادة لم تكن متفشية بين الأسر السابقة لهم، فأدى ذلك إلى زيادة نفوذ كهنة النبوءة في طيبة زيادة تفوق الوصف، فسيطروا بذلك على العرش .

ولقد استشار أمنحوتب الثالث كهنة النبوءة في معبد الكرنك، فأخبروه بأن ابنه سيقتله ويتزوج أمه. مما حدا بالملك إلى أن يبعد ابنه عن مصر كلها، وأن يرسله مع خادم لكي يتخلص منه. لكن الخادم أشفق على الولد وأبقاه حيا، حتى وصل إلى أهل أمنحوتب الثالث، من أمه، في بلاد "متننى ".

فظل أمنحوتب الرابع بعيدا عن مصر طوال فترة حكم أبيه، ولم يذكر اسمه مع نقوش والده كما حدث لباقي ملوك مصر. إذ كانوا يذكرون أولادهم، خاصة ولي العهد، في نقوشهم .

فقد رُسم أمنحوتب الثالث وزوجته وبناته في أحجام ضخمة، أكبر من الحجم الطبيعي، لكن لم يظهر ابنه وولي عهده في هذه الصور أو في صور العائلة الأخرى. في حين وردت صورٌ عديدة لأمنحوتب الثالث وهو يهدي موظفيه المنح والعطايا .

وذكر علماء التاريخ أنهم لا يعلمون إن كان أمنحوتب الثالث قد مات ميتة طبيعية أم كان ضحية لمؤامرة نسجت في القصر. أو فشل في العودة حيا من إحدى رحلات الصيد. وتقلدت زوجته "تي" الحكم لبضعة أشهر أو لأسابيع وحدها، ثم ظهر ابنها أمنحوتب الرابع فجأة وتسلم مقاليد الحكم حتى ساد الاعتقاد بأنه قد اغتصب العرش من والده .

يبدأ أمنحوتب الرابع بعد فترة قصيرة من حكمه إصلاحاته الدينية. فيعزل الإله آمون، ويضع مكانه الإله آتون. ويغير اسمه إلى إخناتون. وعندما يناجي إلهه آتون يصف نفسه بأنه العائش في الحقيقة. ويتخذ ذلك وصفا له.ثم يجري العديد من التعديلات في العبادة.

أصبح آتون هو الإله الأوحد، لا في مصر وحدها، وإنما في كل البلاد التابعة لمصر .

منع تقديم القرابين البشرية التي كانت تقدم إلى الآلهة أيام والده أمنحوتب الثالث وجده تحتمس الرابع وغيرهما .

منع صيد الحيوانات لمجرد المتعة. ومحا اسم آمون واسم والده في حين أبقى على اسم أمنحوتب الأول رغم أنه يمتزج أيضا باسم آمون .

ويرى أمانويل فيلكوفسكي أن الأمر لو كان قاصرا على مسألة الديانات والعبادات لكان أزال اسم آمون من أمنحوتب الأول أيضا، إنما العداء كان منصبا على والده الذي أبعده عن قصره وبلده وحرمه من أمه

وأخوته، وكان منصبا على آمون وكهنته الذين كانوا سببا فيما حدث له لنبوءتهم الغادرة .

واهتم إخناتون بكهنة هليوبوليس الذين لم يشتركوا في هذه النبوءة والذين كانوا مستضعفين طوال فترة حكم الأسرة الثامنة عشرة .

ومحا إخناتون، أيضا، أخبار هذه النبوءة من كل النقوش حتى أنه لا يوجد لها أثرا فوق الآثار .

بنى إخناتون عاصمة جديدة "إخيتاتون" (أي المكان الذي تُشرق منه الشمس) وهي في رأى فيلكوفسكى عاصمة تعيش على الملذات. فإخناتون هو الوحيد الذي صور زوجته وبناته عرايا، بل كان يضع يده فوق صدر زوجته الجميلة نفرتيتي، وأصابعه تصل لحلمتي ثدييها .

وأسطورة أوديب، كما نعلم، تحكي أن لايوس قد أعطى الطفل أوديب إلى خادم لكي يتركه فوق الجبل لتفترسه السباع، فرقَّ الخادم لحاله وسلمه إلى راع، أخذه إلى كورنثة حتى اتخذه ملكها ولدا له .

وهذا ما حدث لإخناتون. فعند اكتشاف بلدة "إخيتاتون"، وجدت مقابر مهداة من إخناتون إلى رجال دولته، ومنها مقبرة مهداة إلى رجل يدعى "بار نفر"، ينحدر من أصل ليس بالنبيل، وله صور توضح زوجته وهي تستقبله بعد أن تسلم الهبات الملكية والألقاب التي أغدقها الملك عليه .

ويزعم فليوفسكي أن هذا الرجل كان خادما لدى أمنحوتب الثالث، والد إخناتون، وأنه تلقى أوامر من الملك بالقضاء على الطفل الصغير. لكن الخادم أبقى عليه وسلمه إلى ملك متني لتربيته .

ويزعم المؤلف أيضا أن قدمي إخناتون الطفل، كانتا متورمتين ومشوهتين. فالتشابه يكاد يكون كاملا في كل شيء بين إخناتون وأوديب .

ونرى في مقبرة أخرى لـ "آي" وزوجته "تاي" وهما يتسلمان الهبات من إخناتون ونفرتيتي نقشا يقول "إن فرعون الرخاءوالحياة الصافية قد منحهما ملايين الأكداس من الذهب ووسائل الرخاء والثراء ".

وآي هذا هو شقيق تي، زوجة أمنحوتب الثالث وأم إخناتون، ويقابله في الأسطورة "كريون" الذي تمتع بنفوذ كبير بعد موت لايوس ووصول أوديب وتوليه الحكم. فهو الذي وهب أخته جوكاست إلى أوديب بعد قتله الوحش. وكان يلي الملك في المكانة داخل المملكة .

بعد موت أمنحوتب الثالث ظلت "تي" مشرفة على حريم زوجها، كما هو مبين على النقوش فوق الآثار، فكيف يكون للزوج الميت حريم؟

ويؤكد المؤلف أن "بكتاتن" ابنة إخناتون من أمه " تي"، وأن باقي بناته من نفرتيتي. فـ "بكتاتن" تظهر دائما في الصور مع " تي". بينما الأخريات يظهرن مع أمهن نفرتيتي، ويطلقون على بكتاتن، في النقوش، ابنة الملك. وعلى الأخريات بنات نفرتيتي .

لقد تولى إخناتون الحكم بعد موت والده أمنحوتب الثالث مباشرة. وعندما كانت بكتاتن في الرابعة من عمرها كان إخناتون يحكم منذ اثني عشر عاما تقريبا .

وتظهر في اللوحة نفرتيتي وإخناتون ومعهما أربع فتيات يلوحن بمراوحهن لأبيهن الملك. وفي الجانب الآخر "تي" ومعها بكتاتن وثلاث وصيفات. وكُتب تحت الصورة "الأميرة الوريثة كريمة في حياتها، سيدة الرشاقة، خلابة بركة حبها، تملأ جوانب القصر بجمالها، سيدة الشمال والجنوب، زوجة الملك العظمى التي يحبها ويقدسها، سيدة الأرضين ".

وكُتب بجوار بكتاتن "ابنة الملك من جسده، المحببة إلى نفسه ".

شكوك وصكوك

وهناك شك. هل الملك الجالس على عرشه في الصورة هو أمنحوتب الثالث أم ابنه إخناتون؟

ويؤكد ايمانويل فيلكوفسكي أن النقوش على كتف الباب الأيمن، تحت الشراعة، تسرد أسماء ملك الشمال والجنوب، العائش في الحقيقة. وهي أسماء تخص إخناتون وحده. كما أنه خلال تاريخ هذه الصورة كان أمنحوتب الثالث قد مات منذ أكثر من عشر سنين .

ويظهر في الصورة شعاع آتون يمسك برمز الحياة عند فمه، وشعاع آخر يمتد من قرص الشمس إلى فم "تي" ممسكا بعلامة مماثلة. كما أن جسم الملك، في الصورة، هو جسم إخناتون بملامحه المميزة المعروفة .

ولوحة أخرى على الحائط الشرقي من غرفة المدفن تصور إخناتون يقود "تي" من يدها وهي شبه عارية، تظهر خطوط ثدييها وبطنها وساقيها بوضوح تام. وإخناتون ينظر إليها بعاطفة جياشة، كما لو كانا عاشقين

وليس ابنا وأمه. وقد كتب أمامه "يقود الملكة العظمى، والأم الملكية لترى ظلها في الشمس ".

لقد تربى إخناتون، كما يزعم المؤلف، في متني استجابة لتحذير النبوءة وهو في مرحلة الشباب .

ومتني ليست في شمال سوريا كما جاء في العديد من المصادر، وإنما هي شمال العراق التي كانت مستعمرة فارسية، وقد تأثر إخناتون بمعتقداتهم التي تجعل من زواج الابن بأمه عملا مقدسا. فلا يتم تطهير حاملات الجسد ببول الماشية فقط البقرة المقدسة) بل بخليط من بول رجل وامرأة كانا قد زاولا (الكسفايتفادانا) وهو زواج الآباء بأولادهم، والأخوة بأخواتهم .

وقد أحست نفرتيتي بالغيرة من "تي"، وأن السنوات الأخيرة من حكم إخناتون لا يرد فيها ذكر نفرتيتي. فـ "تي" هي الملكة الرئيسية، بينما نفرتيتي مجرد زوجة من زوجات الملك الكثيرات. وانحطَّ شأن أطفالها فأصبحوا في مركز أطفال الحريم .

وبمرور العام الثاني عشر؛ هجرته نفرتيتي وصار الصراع دائرا بين إخناتون و"تي" من جهة، ونفرتيتي ووالدها "آي" من جهة أخرى. وبعدها اتسع نفوذ "آي" فكان يدير ماليات الدولة والقصر. واختفت "تي" من الوجود بعد فترة قصيرة؛ إذ لم تدفن بجوار أمنحوتب الثالث؛ بل لم يجدوا لها أية مقبرة .

وانتشر الوباء في البلاد وعم الفقر، فأحس الشعب بأن الآلهة غاضبة عليهم وناقمة. وقد سألوا كهنة النبوءة عن سر ذلك. فأنبأوهم بسر الخطيئة. وتزعم "آي" الحركة ضد ابن أخته إخناتون انتقاما لابنته نفرتيتي المهيضة (وهو نفس الذي فعله كريون في أسطورة أوديب) وتغير موقف "آي"، فبعد أن كان من أشد المتحمسين للإله آتون، انقلب وانضم إلى كهنة أمون انتقاما من إخناتون .

تيرسياس هو عراف أسطورة أوديب. وقد ذكره هوميروس في الأوديسة حين ذهب أوديسيوس إلى العالم الآخر ليستشيره .

وقد تحول تيرسياس إلى امرأة بعد أن قتل الحية. ثم عاد إلى رجولته. لذا؛ عندما اختلف زيوس وزوجته هيرا في مسألة: أي الجنسين يتمتع بالجنس أكثر، الرجل أم المرأة؟ ذهبا إليه ليسألاه في ذلك على أساس أنه جرب النوعين معا. فأجاب "إن المرأة تتمتع بالجنس أكثر ".

فجاءت إجابته على غير ما تريد هيرا. فأعمته. بينما أعطاه زيوس العمر المديد وأسبغ عليه بنعمة التقديس .

وأمنحوتب بن حابو؛ هو العراف الحقيقي الذي صورته الأسطورة في صورة تيرسياس. فقد ألَّهه المصريون بعد موته، وصنعوا له تمثالا يبدو بشعر طويل كالنساء، وقد كان عمره ثمانين عاما في العام الرابع والثلاثين من عمر أمنحوتب الثالث. وعاش إلى أن حكم إخناتون .

ولم يبرح طيبة عندما برحها إخناتون إلى مدينة "إختياتون". وانحاز إلى "آي" ضد إخناتون. كما انحاز تيرسياس إلى كريون ضد أوديب.

لقد غضب آمون على مصر كلها لأنها تركت عبادته. لذا؛ فشلت المشروعات العسكرية، وتناقصت أطراف الإمبراطورية .

ذلك ما قاله "توت عنخ آمون" عن ديانة إخناتون الجديدة، وانضم "سمنقرع"، الذي كان يشارك إخناتون الحكم، إلى جانب "آي" وسافر إلى طيبة لمصالحة كهنة آمون وترضيتهم. وحددت إقامة إخناتون في أحد مباني مدينة "إختياتون" وحكم سمنقرع وحده .

ذلك حدث في الأسطورة أيضا. فقد قال تيرسياس "إن الآلهة قد أدارت ظهرها لهذه الأرض. فإن تضرع إليها إنسان لطلب شيء؛ لا تقضيه له." كما أن أوديب قد سجن أيضا في أحد مباني طيبة .

وفي عصرنا هذا؛ قام بعض البدو بإزالة الأتربة في "تل العمارنة" فظهر المبنى الذي كان سجنا لإخناتون. وقال البدو "إن أحد الملوك قد أخفى ابنه في ذلك المكان لكي يحميه من نبوءة تنبأ بها القدر عند ولادته ".

ظلت حكاية إخناتون تتردد وتتناقل من جيل إلى جيل إلى أن وصلت إلى عصرنا هذا .

تقول الأسطورة إن أوديب قد أعمى نفسه بعد اكتشاف خطيئته. وهيرودوت يقول أيضا "إن فرعونا جلس على عرش مصر وهو أعمى. وأن اسم مدينته هو نفس اسمه. وإنه هرب من أعدائه إلى المستنقعات، وخلفه على عرش مصر الأثيوبيون. ثم أعاده أنصاره ثانية إلى العرش بعد أن هزموا الأثيوبيين ".

ويظهر توت عنخ آمون في نقوش مقبرته وهو يحارب الأثيوبيين. كما أن إخيتاتون، مدينة آتون، مشابهة لاسم إخناتون. وأوديب في الأسطورة تم نفيه في منطقة مليئة بالكثبان الرملية. وهذا أقرب إلى أرض المستنقعات .

وبعد أن عادت عبادة آمون ثانية؛ نظم طلاب المدارس أناشيد لآمون تذكر أن ذلك الذي هاجمك يسبح في ظلام دامس، على حين يسبح العالم كله في ضوء النهار .

يقصدون أن إخناتون قد عمى ويعيش في الظلام. وعادة ما يحذف اسم إخناتون وورثته من قوائم الملوك المصريين التي كتبها من خلفهم من فراعنة، كما لو كانت فترة حكمه وشخصيته وسلالته شرا مستطيرا لا يجب أن يذكر. وإذا ما اضطروا إلى ذكره، قالوا "مجرم اختاتون ".

ولقد تم اكتشاف مقبرة، ظنوها، أول الأمر، مقبرة "تي"، كانت الفوضى تشملها من كل جانب. مع تأكيد أن لصوص المقابر لم يقتربوا منها أو يتوصلوا إليها. كما أن المكان لا يليق بأن تدفن فيه ملكة. فخدم "تي" دفنوا في مقابر أكثر رقيا من هذه المقبرة .

كانت المقبرة عبارة عن كهف وعر نحت في الصخر، بلا رسوم تزينه. وبدا أن دافني الجثة كانوا في عجلة وعدم احتياط مما أدى إلى سقوط التابوت وكسره. هذا إذا لم يلقوا به عمدا .

وذلك المكان يؤكد أن هذه مقبرة سرية، حفرته أيدٍ غير مدربة. وعند عرض عظام المومياء على أخصائيين؛ أكدوا أن عظام الحوض لذكر لا لأنثى. ثم اعتقدوا أن الجثة لإخناتون، وأن دافنيه قد أخفوا جثته في ذلك المكان الموحش حتى لا يتوصل إليها كهنة آمون؛ فيمثلون بها انتقاما مما فعله بهم وبآتون .

لكن عند اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في نوفمبر ١٩٢٢ وفحص المومياء المدفونة في المقبرة توصلوا إلى الصلة بينها وبين التعيس المدفون في المقبرة الأخرى المهملة، واتضح أنها لسمنقرع شقيق توت عنخ آمون الأكبر، ولدي إخناتون .

واتضحت الحقيقة المذهلة، أن ما حدث في أسطورة أوديب بعد نفي أوديب وموته، هو ما حدث في الحقيقة بعد نفي إخناتون وموته .

اتفق سمنقرع مع أخيه توت عنخ آمون على أن يتبادلا الحكم عاما لكلا منهما. لكن "آي" المسيطر الفعلي على الحكم، حرض توت عنخ آمون بألا يترك الحكم لأخيه .

وقُتل الملكان في المعركة (توت عنخ آمون، وسمنقرع) فأعلن "آي" بأن سمنقرع خائن لبلاده لاستعانته بالأغراب، لذا؛ ستظل جثته في الخلاء دون دفن. ومن يجرؤ على دفنها سيعاقب بالموت. بينما أقام لتوت عنخ آمون جنازة مهيبة؛ ومقبرة غنية مملوءة بالذهب والمجوهرات بطريقة مذهلة لا تتناسب مع قدره. وقد ثبت تاريخيا أن سمنقرع وتوت عنخ آمون قد ماتا في وقت واحد .

إن ميريتاتن، أكبر بنات إخناتون وزوجة سمنقرع، هي أنتيجونا في الأسطورة. فقد تحدت "آي" ودفنت زوجها. فكان عقابها الحبس داخل ذلك الكهف الذي دفنت فيه زوجها .

وقد وجدوا في مقبرة توت عنخ آمون خصلة من شعر "تي"، والمعروف أن المجتمعات الشرقية، وبعض الغربية، تدفن جثة المنتحر خارج حدود الأرض المقدسة التي بها جبانة الجماعة .

لكن هناك اعتقادات، في نفس الوقت، تدعي أن روح المنتحر تهيم أثناء الليل، وأن كل ما يتخلف عنه من ممتلكات تجلب الحظ. فقطعة من حبل الذي شنق نفسه تعتبر تعويذة لجلب الحظ، لذا؛ وضعوا خصلة من شعر "تي" المنتحرة كتعويذة تحمى مقبرة توت عنخ آمون من اللصوص .

أي أن "تي" انتحرت حزنا على ما فعلته، كما انتحرت جوكاست، في الأسطورة التي تناولها العديد من كتاب الدراما القديمة والحديثة .

الموضوع الأساسي في مسرحيات "أوديب في كولونا، وانتيجونا، وسبعة ضد طيبة" هو مشكلة دفن الموتى وأهمية إكرام الميت بدفنه. فأوديب كان يبحث عن إخفاء مكان مقبرته حتى لا يعبث بها أعداؤه .

والمشكلة الكبرى لدى أنتيجونا، ليس موت أخيها بولينكيس، وإنما ألا تدفن جثته لكي لا يعذب في حياته الأخرى الباقية إلى الأبد. وهذه المشاكل منبعثة من البيئة المصرية فنعي انتيجونا لأخيها بولينكيس

ظاهرة لا مثيل لها في الأدب اليوناني. بل ظاهرة غير موجودة سوى في مصر التي أعطت أهمية أكبر للمقابر وللعالم الآخر .

ووضع الجسد في كهف محفور في الجبال أمر جديد على اليونانيين الذين كانوا يحرقون موتاهم أو يدفنونهم في الأرض. وإنما المصريون هم الذين حفروا الجبال وصنعوا منها كهوفا لموتاهم. وذلك ما يؤكد حدوث الصراع بين سمنقرع وتوت عنخ آمون، ورفض "آي" دفن سمنقرع انتقاما وتعذيبا له .

أباطيل اليهود والانقياد المغلوط

هناك نقاط عديدة يتشابه فيها أوديب مع إخناتون:

جثة إخناتون لم تحنط، ومن ثم لم يحافظ الزمن عليها كسائر ملوك مصر. ولم يدفن في مقبرة معروفة. كما رجا أوديب "تسيوس" الذي تعاطف معه وأشفق عليه، بأن يظل مكان مقبرته مجهولا لا يعرفه أحد .

ولقد حكم كلٌّ منهما عشرين عاما (وتشمل هذه المدة السنوات التي قضاها إخناتون في سجنه)

تزوج "آي" من انخستاتن، أرملة توت عنخ آمون، التي تغير اسمها إلى انخستامن، لكي يدعم "آي" حقه في الجلوس على العرش. وكذلك فعل كريون، فقد تزوج ابنة من بنات أوديب، وكان ينوي أن يزوجها ابنه، وذلك توطيدا لحقه في الجلوس على العرش .

دمر الغزاة مقبرة "آي" بعد موته وأصبح التابوت شذرات صغيرة، ومحوا الرسوم والنقوش المحفورة على الحائط انتقاما مما فعله بهؤلاء

الغزاة عندما جاءوا مع سمنقرع وحاربوا معه فهزمهم "آي" بالاشتراك مع توت عنخ آمون .

وهذا ما حدث لكريون في مسرحية "أنتيجونا"، إذ يتنبأ العراف تيرسياس بأن العار والتدنيس سيلحقانه بعد موته، وستلقى جثته خارج مقبرته لعدم دفنه بولينكيس .

يؤكد المؤلف أنه كانت هناك صلات حميمة بين مصر وأثينا في عصر الأسرة الثامنة عشرة فعُثر على جعران محفور عليه صورة أبو الهول له أجنحة في أثينا من الجعارين التي كانت مستخدمة في هذا الوقت في مصر. وأن قصة "تي" لابد أن تكون قد وصلت إلى المتيتيين بحكم المصاهرة .

إذ أن جدة إخناتون لأبيه كانت منهم. ثم وصلت القصة إلى بلاد أخرى، حتى وصلت إلى أثينا. وأن طيبة، في ذلك الوقت، كان اسمها "نوامون". وأطلق اليونانيون عليها اسم طيبة، إعجابا بالمدينة المصرية .

وأن ما حدث لأمنحوتب الثالث وزوجته "تي" وابنهما إخناتون؛ قد علم به التجار الذين يسافرون إلى مصر لبيع منتجاتهم، فتحدثوا به في الأسواق الفينيقية إلى أن وصلت اليونان عن طريق الفينيقيين. وهذا ما حدا بيوربيدس بأن يجعل الفينيقيات يبحن بالسر في مسرحية "الفينيقيات".

ويذكر سوفكليس في "أوديب في كولونا" على لسان أوديب عن ولديه "أنهما يظهران صورة صادقة لوسائل مصر وطباعها وفي روحهما وحياتهما." ويذكرون طيبة الذاخرة بالعربات الحربية .وكانت طيبة المصرية ذاخرة حقا بالعربات الحربي.

وذكر جلادسون "إن الكثير من هياكل الأساطير اليونانية التي ذكرها هوميروس، قد تشكلت في البلاد الشرقية، خاصة مصر ".

المشكلة عند إيمانويل فليوفسكي (اليهودي) أن فرويد (اليهودي) أيضا، قد أَلَّف كتابا عن إخناتون وموسى "موسى والتوحيد" جعل فيه إخناتون أستاذًا لموسى. ذلك ساءه كما ساء العديد من اليهود فسخطوا على إخناتون وتتبعوه وحاولوا التقليل من شأنه، وإلصاق العار به .

يقول فليكوفسكي في مقدمة كتابه "ومما يدعو للسخرية أن كلا من أوديب وإخناتون كان بطلا لمؤلفات فرويد. ولم يدرك فرويد تمثالهما الوثيق حتى في تكوين الشخصية. إذ رأى في أوديب نموذجا يرمز إلى الزاني الذي يُعذَّب من جراء بواعث خطيئة يرضخ لها. وإن كانت هذه البواعث إنسانية إلى حد بعيد .

على حين رأى في إخناتون قديسا، أول الموحدين، والذي سبق موسى المشرع .

ذلك ما أغضب ايمانويل ودفعه لأن يؤلف كتابه هذا لكي يجرد إخناتون من القدسية التي وصفه فرويد بها، ويجعل أفعاله، التي قدرها العالم واهتم بها، نتيجة لخطيئة تدعو إلى الخجل؛ لا إلى الفخر .

وهو يرى أن فرويد مجرد مريض نفسي، وأن موقفه من أبيه جعله يتخذ موقفا معاديا من دينه اليهودي أيضا. وأنه قد ظهر في عصرنا الحديث هذا، رجل يدعى أنه قدر له أن يقود الجنس البشري كله إلى

التوبة والإخلاص. وأن الطاقة الشمسية قد جعلت له وحده في صورة أشعة تبعث الحياة، وأن حالة ذلك المريض؛ تشبه حالة إخناتون. وأن إخناتون لو وضع تحت الفحص النفسي لأتضح أنه كان نرجسيا، ميالا للشذوذ الجنسي وظواهر تخنث على وشك أن تظهر فيه .

دأب اليهود على الحط من شأن إخناتون وديانته. فيؤكد بعضهم أن تلك الديانة لم تكن وليدة تفكير إخناتون، بل هي مأخوذة من التوراة، زعما منهم بأن ديانتهم قد ظهرت قبل عصر إخناتون. واستنادا إلى التشابه بين بعض فقرات أنشودة آتون وبين الفقرات من ٢٠ إلى ٣٠ من المزمور ١٠٤ من العهد القديم .

ومن المعروف أن إخناتون عاش في عصر سابق لعصر ظهور المزامير. وأن المقارنة البسيطة بين نشيد إخناتون والمزمور١٠٤ لتدل على أن النشيد هو أصل المزمور.

بل أن هناك العديد من الأناشيد القديمة لآمون وغيره من الآلهة المصرية؛ قريبة من أناشيد إخناتون. والكلمات المستخدمة في النشيد والمزمور أيضا تؤكد مصريتها .

لم يكن إخناتون أول من نادى بعبادة آتون. ففي إحدى لوحات تحتمس الرابع (جد إخناتون) ظهر تحتمس يعبد قرص الشمس (آتون). وقد تدلى من هذا القرص شعاع ينبعث من الشمس حاملا إليه الخيرات.

ويذكر الدكتور سليم حسن في موسوعته عن مصر القديمة، الجزء الخامس، صفحة٢٥٧ .

في عهد أمنحوتب الثالث خطا الميل إلى عبادة قرص الشمس خطوة ثابتة. إذ نشاهد هذا العاهل يطلق على قاربه الذي يتنزه به في بحيرته الصناعية بمدينة "هابو" اسم آتون. وسمح لأبنه أمنحوتب الرابع (إخناتون) ببناء معبدٍ في الكرنك لآتون .

نشأ إخناتون في بيئة لديها الاستعداد لتغيير العادات والتقاليد المتوارثة والتي تكبل الملوك والشعب معا، والتي فرضتها عليهما كهنة آمون .

فقد أحس تحتمس الرابع بأن كهنة آمون قد وصلوا إلى درجة لا يستطيع احتمالها من الغرور والتحكم في كل شيء؛ فانتزع منهم وظيفة رئيس كهنة القطرين، وقلدها لأحد قواده ممن يركن إليهم ويثق بهم .

كما أن إخناتون سمع أمه "تي" في أكثر من مكان في القصر وفي أوقات عديدة تشكو من تحكم كهنة آمون وتدخلهم في أمور المملكة؛ خاصة أنهم حاولوا منع أمنحوتب الثالث من أن يتزوجها لأنها ليست من أصول ملكية .

وساعد على تمكن هذه الناحية المتحررة ما وصلت إليه البلاد من الثراء الواسع والجاه العريض، فاهتموا بالفنون والعمارة، والتحموا بكل الحضارات الموجودة في العالم، وحطموا التقاليد التي جرى عليها أجدادهم الملوك القدماء، فتزوج تحتمس الرابع من أخت ملك متني. وتزوج أمنحوتب الثالث واحدة من عامة الشعب، كانت تذهب إلى

القصر لزيارة أمها التي تعمل هناك، فأعجب بها الملك وأحبها وصمم على الزواج منها .

إن ملوك الأسرة الثامنة عشرة منذ أن تولوا الحكم دأبوا على تحطيم التقاليد المتوارثة؛ فهيئوا لإخناتون الظروف التي ساعدته للنداء بعبادة إله واحد .

أما عن الزعم من أن إخناتون لم يعد إلى مصر إلا بعد موت والده أمنحوتب الثالث، فذلك يجافي الحقيقة تماما. فالمصادر التاريخية تؤكد أنه حكم ست سنوات بالاشتراك مع والده. وما يقرب من ثلاث عشرة سنة بمفرده. ومات في سن يقارب الثلاثين من عمره. بمعنى أنه تولى الحكم صغيرا. وليس من المعقول في هذه السن المبكرة أن يقوم بأعباء ثورة عاتية وحده، متحديا أكبر قوة عرفتها مصر في ذلك الوقت؛ وهي قوة كهنة آمون .

إن أمه "تي" هي التي وجهته وساندته، خاصة بعد موت والده أمنحوتب الثالث الذي كان حريصا على إقامة توازن بين كهنة آمون وغيرهم من كهنة الآلهة الأخرى .

أثار إخناتون جدلا عظيما منذ أن توصل إليه علم المصريات، لا لأنه نادى بعبادة آتون. ولكن لأنه نادى بعبادته وحده، ولأنه جعل العبادة لأله واحد على عموم الإمبراطورية الكبيرة جدا .

فيقول آرثر ويجال عنه :

قد نعتبر إخناتون من الناحية الزمنية، وربما بالنظر إلى العبقرية أيضا، أنه أول رجل مثالي في العالم. ولا جدال في أنه قد خلق روحا جديدة في العلاقة الشخصية بين الإنسان والإله، وهي روح لم يعهدها الناس من قبل في دين. أو على الأقل لم تسجل من قبل في ترانيم أو صلوات سابقة كانت أم لاحقة ".

لكن اليهود، كالعادة، ينسبون كل الأعمال العظيمة في العالم إلى أنفسهم، ويتبعهم في ذلك بعض العلماء، غير اليهود، متأثرين بدعاياتهم وأصواتهم العالية .

والغريب في الأمر أن يتبعهم بعض العلماء المصريين أيضا، فينسبون إلى إخناتون ما زعمه اليهود عنه .

ضرب الزوجات للأزواج



كنا نسكن بيتاً في حي " سوق عقداية " المشهور بتجارة المخدرات، كانوا يسمون بيتنا؛ بيت الصعايدة، خمسة أخوة جاءوا من الصعيد، واشترى أقاربهم الذين سبقوهم إلى الإسكندرية هذا البيت، دون أن يعلم أبي وأخوته شيئاً عن هذا الحي.. صعايدة يتحكمون في زوجاتهم، يسبونهن ويضربونهن إذا اقتضى الأمر ذلك، أحدهم ضرب زوجته في " الصباحية " دون سبب لكي تعرف طبعه وتتعود عليه. وأصغرهم كان يسكن حجرتين في الشقة التي نسكنها، كنت أراه من حجرتنا وهو ينادي زوجته، وهي خائفة منه؛ كطفلة صغيرة خائفة من أبيها.

نشأتُ في هذا الجو، وعرفت أن الرجل له حقوق على زوجته، لكن فجأة حدثت مشاجرة في البيت المقابل لبيتنا، رجل يتشاجر مع زوجته، ضربها فردت عليه بالضرب هي الأخرى، والظاهر أنها أقوى فقد فازت عليه، وكانت مفاجأة غريبة بالنسبة لي أهناك امرأة تستطيع أن تضرب زوجها؟! (إنني لا أذكر اسم هذه المرأة الآن، وقد حاولت أن أتذكره دون طائل، استعرضت في ذهني الجيران الذين كانوا يسكنون البيوت حول بيتنا، أم حسين المرأة الصعيدية الطويلة العريضة المتزوجة

من القط عامل المخبز، والذي يصغر ابنها حسين، وكان ابنها يبيع الفاكهة، وكان أبي يرسلني إليها لشراء البطيخ الذي كانت تضعه تحت السرير ذي العمدان العالية، وأم إبراهيم سوسو التي كانت تعمل في كار العوالم، والمرأة الجميلة الطويلة العريضة، التي كانت مسيحية وأسلمت وتزوجت من تحبه.. إلخ)

تذكرتُ هذه الحادثة التي مر علي حدوثها ما يزيد عن الخمسين عاماً عندما وصلني إميل لا أدري من أين جاءني، رجل يحكي عن مشاجرة حدثت في أحد البيوت، امرأة تصرخ وتسب، فدخل مع بعض الرجال ليروا ما يحدث، ظنوا أول الأمر أن رجلاً يضرب زوجته وهي تصرخ وتستغيث، فرأوا أطفالا صغاراً ملتصقين بالحائط في ذعر وينظرون في هلع إلى باب حجرة موارب، يأتي منه صوت المرأة، فدفعوا الباب ودخلوا الحجرة، فإذ بامرأة تمسك خرطوم مياه وتضرب به زوجها القابع في ركن الحجرة في خوف، نظرت الزوجة إليهم غاضبة، وصاحت فيهم:

– ما الذي أدخلكم الشقة دون استئذان؟!

فأسرعوا خارجين من الشقة في دهشة.

وتذكرتُ المرأة التي اتصلت من سوريا، لتتحدث مع مذيع برنامج " القاهرة اليوم "، لتدلي برأيها في الموضوع الذي طرحه المذيع عن ضرب الزوجات الأزواجهن، فقالت:

– كنتُ وأنا صغيرة مدعوة مع أسرتي لزيارة أسرة تعيش في الإسكندرية، ورأيت الزوجة المضيفة تضرب زوجها بالشبشب، وهو قابع في ذل غير قادر على الرد عليها ولا حتى بالكلام، وأطفالها يهدئونها، قائلين:

– خلاص يا ماما، مش حايعمل كده تاني.

قالت إن هذا المضيف كان مديراً عاما في شركة من شركات الإسكندرية.

شعرتُ بالضيق من حديث المرأة السورية، لأن ما تحكي عنه حدث في مدينتي الإسكندرية، وذلك الزوج الخانع الضعيف هو سكندري.

وحكى لي أحد الأصدقاء، إنه على صلة بأسرة، رجل مسن متزوج من امرأة شابه تصغره بكثير، يزورهم ويزورونه، وفي إحدى الليالي، اتصل به الزوج وهو يبكي صائحا:

– الحقني يا "......"، " فلانة " تضربني.

لكنها شدت منه سماعة التليفون، وقالت:

– لا، ده بيهزر معاك.

ولم يكن الرجل يُهزر، إنما كان يبكي من الألم.

ما الذي يجعل رجلا يتقبل هذه الإهانة من زوجته؟! لا شك أن هناك أسباباً كثيرة لذلك. فقد عرفت رجلاً ثرياً غير وسيم، يمتلك مصنعاً صغيراً للعلب المعدنية متزوجاً من امرأة جميلة وصغيرة، تزوجته من أجل ماله، وقد قالت في غيابه: " ده شكله يشبه القرد "، كانت تحكم عليه بأن ينزل قرب الفجر ليبحث عن جزار فاتح ليشتري منه سجق، وكان ينزل ويركب سيارته ويدور في شوارع الإسكندرية ليأتي لها بما تريد.

وآخر كان زميلي في العمل، قال لي:

– كل شيء له ثمن، قد يتأخر السداد، لكنه لابد أن يسدد.

حكى لي حكايته، كان يسهر لوش الصبح مع أصدقائه، وينفق أمواله على الشرب والسهر، ولم يخطر له الزواج على بال، لكن شركتنا – شركة الورق – اشترت مصنع كرافت السويس بعد أن ضربته القوات الإسرائيلية أكثر من مرة بعد هزيمتنا في حرب ٦٧، وضمت شركتنا إليها العاملين في المصنع، فجاءت امرأة مطلقة تمتلك أموالاً مكنتها من إيجار شقة قريبة من مكان العمل، وعرضت على زميلي هذا الزواج: " لن تغرم مليماً، كل شيء على حسابي "، وفرح الرجل، " زواجه ببلاش " وتزوجها، كان وقتها شاباً وسيماً وقوياً، أنجب منها بنتاً، ثم شاخ، وهاجمته الأمراض، فكانت تتحكم فيه، أحيلت على المعاش قبله، فكانت تضيق من إحداث الأصوات في الصباح وهو يستعد للذهاب إلى العمل، قال لي:

– لا أستطيع أن أطلب منها كوب ماء، أنتظر عندما تطلب منها أبنتها هذا، فأقول لها، وأنا كوباية ميه بالمرة.

اتصلتْ به وأنا أجلس بجواره قائلة:

– تعالى خد هدومك وسيب البيت.

فرد عليها قائلا:

– هدي أعصابك يا حاجة، عاملنا أكل إيه؟

وحكى لي أديب كبير، بأن جارا له في بيته القديم، تضربه زوجته من وقت لآخر، لأنه يطارد النساء – جاراته – ويفعل أفعالاً مشينة

متخفيا خلف النافذة، فتشتكيه الجارات إلى زوجته التي تضطر لضربه لكي تمنع مشاكل ستحدثها الجارات وأزواجهن.

لاشك أن الأزواج الذين يرضون بضرب زوجاتهم لهم، لديهم مشاكل نفسية تجعلهم يتحملون هذا، فأعرف رجلا متزوجاً من امرأة أصغر منه بكثير، جميلة وناضجة، وهو لم يعد قادرًا على شيء، فأدى هذا به إلى أن يغار عليها بشكل مرضي، يتشاجر مع أصدقاء ابنها الذين يأتون للسؤال عنه، وكل يوم مشكلة من هذا النوع، مما جعل زوجته تتجرأ عليه شيئا فشيئاً وتسبه. وهو غير قادر على الرد عليها، ولا يستطيع البعد عنها.

ويقول الكاتب الإنجليزي الكبير برتراند راسل:

" الشيء الذي ندمت عليه، أنني رأيت سيدة تصفع زوجها على وجهه، فانزعجت وتمنيت أن أمد يدي وأضرب هذا الزوج " قلما " آخر، لأن الرجل الذي يقبل أن تصفعه سيدة مرة واحدة ولا يتحرك؛ يستحق أن تمتد إليه الأيادي، كل الأيادي ".

مقاهي الإسكندرية

ارتبطت ببعض المقاهي منذ صغري – فوالدي كان يحرص على الجلوس على المقهي مثل الكثير من أهالينا. فقد جاء من الصعيد هو وأخوته الأربعة، ثلاثة منهم لم يعطوا للمقهى اهتماما، يجلسون عليها للضرورة القصوى، لكن أبي وأصغر أعمامي ارتبطا بالمقاهي بشكل كبير – فوالدي لم يمتنع عن الذهاب للمقهى إلا عندما فقد القدرة على المشي. كان يذهب لمقهى" دياب " في جبل ناعسة كل يوم. وأحيانا لعدة مرات في اليوم.

وأعرف الكثير ممن يعشقون الجلوس على المقاهي. وقد قابلت زميل لي في العمل بعد خروجنا على المعاش. وسألته:

– هل تقضي معظم وقتك في البيت؟

فصاح معترضا: ليه، هو أنا مرة؟!

ففي رأيه إن النساء فقط من يقضين أوقاتهن في البيت.

عندما كتبت روايتي جبل ناعسة، صورت فيها شخصية صاحب مقهى، فرسمت صورة بالكلمات لمقهى دياب التي ذهبت كثيرا جدا

لمقابلة أبي فيها. الشجيرات الصغار أمامها، وكان دياب أو مساعده، يرشها بالماء، ثم يلفها بقماش أبيض خفيف.

مقهى بسترودس

ومن المقاهي المشهورة في الإسكندرية: مقهى فاروق وبترو وإيليت وديليس وتريانون وباسترودس، في شارع فؤاد الأول (طريق الحرية حاليا) مواجهها لسينما ريو الشهيرة. وكان شاعر الإسكندرية الكبير قسطنطين كفافيس يقضي جل وقته بها. ويحكي حارس فاروق – ملك مصر السابق– بأنه بعد أن طلق فريدة، حزن واغتم، فلعب القمار لوقت متأخر من الليل، فقال له مساعدوه:

– الوقت تأخر يا مولانا والناس تعبت.

فأنهى لعب القمار، ففرح معاونوه وظنوه سيذهب للنوم، لكنه قال:

– ياللا على الإسكندرية.

فوصلوا إليها في الصباح، وجاءوا له بالإفطار من بسترودس كالعادة، لكنه رأي الجنود في قصر رأس التين يستلمون قزان العدس، فذهب إليهم، وأخذ عدسهم وأعطاهم طعام بسترودس. وتحول بسترودس الآن إلى بنك قطاع خاص.

فنجان القهوة

عالم لاهوت إيطالي كان يعيش في القرن الثامن عشر، فنسب اكتشاف نبات البن إلى أحد الصوفية. قال: إن هذا الصوفي رأى بعض العنزات ترعى أوراق وحبوب شجرة صغيرة، كانت تأكل منها بنهم، ثم ما لبث أن أصيبت بحالة من النشاط والحركة. وذهل الرجل الصوفي وهو

يرى المنظر أمامه، وأراد أن يتحقق من ذلك بنفسه، فغلى بضع ورقات من هذه الشجرة فاستساغ المذاق. وأحس بالفائدة والقيمة. وبذلك تم اكتشاف القهوة.

وأول دولة عربية استخدمت القهوة هي اليمن. فكانوا في الماضي يغلون نبات القات، وقد وصل إليهم نبات القهوة – البن – فاستعملوه بدلا من القات، فاستساغوه وارتاحوا للتعامل معه.

وظهرت القهوة بمصر في القرن العاشر للهجرة، وأول ظهور لها في رواق العلم من اليمن بالأزهر. وجاءتهم القهوة عن طريق إخوانهم القادمين من عدن، كانوا يضعونها في ماجور كبير من الفخار، وعن طريقهم انتشرت، أولا بين الطلاب المصريين الذين يدرسون في الأزهر. ثم ذاعت بين العامة وأنشأ الناس دكاكين لتقديمها أشبه بالحانات.

قهوة المشايخ

ومن المعروف أن لكل مهنة شيخ، فالزبالون لهم شيخ يحل منازعاتهم ويتحدث باسمهم، والبناءون لهم شيخ، والطباخون لهم شيخ، وكذلك المقرءون، وكل شيخ مهنة له مقهى يجلس عليها، وكان مقر المقرءون في الإسكندرية وشيخهم في تقاطع شارعي إيزيس وجامع سلطان. وكان يجلس على هذا المقهى؛ المشايخ المشهورين أمثال عبد الباسط عبد الصمد والمنشاوي ومصطفى إسماعيل وغيرهم وكان موقعها مهم لمقرئي القرآن فشارع مسجد سلطان يؤدي إلى مدافن عمود السواري، أكبر وأهم مدافن في الإسكندرية، ومما كان يفخر به هذا

المقهى أن محمد نجيب رئيس مصر في بداية ثورة يوليو ٥٢ زار هذا المقهى وجلس فيه.

لكن دورة مياه الدور الأول العلوي وقعت فجأة على نصبة المقهى، فوقعت العمارة وتشتت المشايخ. حتى لجأوا إلى مقهى قريب في أول شارع ابن الخطاب. وفي مواجهة " مبولة الحضري" المشهورة هناك.

عم عيسى كان شريكا في قهوة المشايخ، وعندما تم هدمها، افتتح قهوة بشارع شجرة الدر (مكانها الآن مكتب بريد غربال) وبدأ الصعايدة يتوافدون على الشارع للعمل، كانت ظروف قراهم ومدنهم تطردهم إلى القاهرة والإسكندرية، فيأتون إلى شارع شجرة الدر الممتلئ بمقاولي المعمار، يعملون في البناء وعمل السلالم الحجرية في البيوت، وينزحون الآبار، إذ لم تكن المجاري قد دخلت غربال، وكان عيسى صاحب المقهى يستضيفهم عنده، وقد أجر لهم دكانا في مواجهة المقهى ينامون فيه، ويبيع لهم الأطعمة، الفول والفلافل، والعدس والفول النابت والأودسية، ويسترزق منهم.

وإذا وقفت في آخر شارع شجرة الدر مساء، (وهو مكان مرتفع) سترى غابة من الطواقي، ففي منتصفة كمية هائلة من المقاهي، يرتاده الصعايدة، عمال البناء.

وسرت في هذا الشارع مع صديق لي في بداية فترة الشباب، وسأل الساقي عن المعلم جرجس. فقال:

– لسه ما جاش، ساعة والا اتنين ويحضر.

وسألت صديقي الذي كان مغرما بالمداعبة ومعاكسة الناس:

– من جرجس هذا؟

قال: معرفش حد اسمه جرجس، إنما لابد أن يكون من رواد المقهى معلم اسمه جرجس. فمعظم عمال البناء مسيحيين.

تحريم القهوة

إن القهوة في اللغة العربية اسم من أسماء الخمر، لذلك حُرمت مئتي عام بمصر، وعندما سألوا المشايخ عن رأيهم في القهوة؛ قالوا حرام لأنها مُسكِّر.

لكن أحد علماء الأزهر أراد أن يتأكد بنفسه، فاحتجز في بيته عشرة أشخاص من الفجر حتى الظهر، وأخذ يسقيهم من القهوة ولا يشرب منها خوفاً من أن تكون مُسكرة، فوجدهم فى قمة التركيز، عكس ما يشاع عنها. فأصدر فتواه بأنها حلال، وأصدر الخليفة في تركيا قرارا بإجازتها بعد أن كان يحرمها.

مقاهي حينا

في حينا مقاهي كثيرة – ثلاث منها في الشارع العمومي، أقربهم إلينا مقهى أبو دومة، فهو في مواجهة الحارة التي تسكنها جدتي. ومقهى أبو الترك ومقهى بكر، ثلاثتهم يمتلكون راديوهات. ولا يمتلكون تلفزيونات. لذا كان عشاق مشاهدة مباريات كرة القدم، يذهبون لشارع إيزيس – أقرب شارع كبير لنا، كل مقهى فيه، بها تلفزيون. يشاهدون المباريات هناك مقابل شرب الشاي أو الكاكاو أو السحلب، لذا، كانت

تحرص هذه المقاهي على تعليق لافتة بنوع المباراة وموعدها. وفي شهر رمضان، وقت الصيام يوزع الساقي على مشاهدي المباريات، قطع ملبن بدلا من المشروبات.

لكن بمرور الزمن استطاع أصحاب المقاهي في منطقتنا من شراء تلفزيونات كبيرة وملونة.

ما فعله الولد حمودة برواد المقهى

انشغل حمودة بفكرة، طاردته لقرب شهر، فصمم على تنفيذها، اشترى عددا كبيرا من حبوب الهلوسة التي يستعملها هو وأصحابه، وصحنها جيدا، وانتظر في مقهى أبو دومة حتى خرج سلامة – صاحب المقهى – لتوصيل المشروبات للزبائن، وخلط مصحون الحبوب بالسكر الذي يحلي به سلامة المشروبات. وقلَّبه بالملعقة الموضوعة دوما داخل الإناء، وعاد إلى مكانه ينتظر نتيجة ما فعل.

أكثر زبائن المقهى من الزبالين الذين يشكلون أغلبية السكان هناك.

قدم سلامة الشاي لعزب، وهو يقترب من الخمسين، أسمر اللون وممتلئ، ومشهور هناك بكبر ردفيه، شرب شايه مفكرا في أزمته، يعمل في قسم زبالة والده مع أخوته الكثيرين، الدخل لم يعد يكفي وهو متزوج ويسكن حجرة بشقة والده. أحس بأن الشاي هذه المرة مخدوم وطعمه أفضل من كل مرة، رجع للخلف، فلمس ظهره مسند المقعد. وشعر بالرغبة في النوم. فكر في أن يطلب من سلامة كوب شاي آخر، لكنه تذكر أزمته المالية فاكتفى بكوب واحد وتابع المارة في انبساط وسعادة.

تابعه من حوله مندهشين فهو لم يقل كلمة واحدة – على غير عادته – كما إنه يبتسم طوال الوقت. وعندما قام لم يحيي أحدا. نظر إلى أرض الشارع أمام المقهى، أمتار قليلة جدا ويصل للحارة. رأي جنيها يتحرك أمام دكان البقال، فأسرع وأمسك به، وحمد الله فهو في أشد الحاجة إليه، أمسكه وطواه بعناية ودسه في جيبه. ودهش مما يرى فالطريق كله نقود تتحرك وتأتي نحوه، فأمسكها وطواها سعيدا، فقد حلت مشكلته فجأة. وعندما وصل لزوجته هنأها سعيدا، وأخرج ما في جيوبه، فصاحت غاضبة: تجننت يا رجل، تلم ورق من الحارة؟!

وشرب هاشم شايه وسط أصحابه، ألح عليهم لكي يشربوا على حسابه، لكنهم امتنعوا جميعا، قالوا: لسه شاربين.

مر سلامة من أمامه وهو يحمل الشيشة من أسفلها ويضع المبسم في فمه، ويسحب النفس، قال له: النهارده شايك مظبوط عالآخر .

تباعد هاشم عمن حوله تدريجيا، يعمل زبالا لدى أم شوقي، المرأة عجوز لكنها مغرية، متزوجة من شاب أصغر منها، يحلم هاشم بها، يتمناها، لكنها جادة، ولا تسمح لمن يزيد في الكلام معها. كان رفاقه يحدثونه وهو يتوه بعيدا عنهم، رأى أم شوقي تدخل كوخه أعلى سطوح بيتها مرتدية قميص نومها الذي يكشف عن ظهرها وصدرها الممتلئ، ونامت فوق صدره راغبة فيه. وقف وسار دون أن يحيي رفاقه، سار كأنه منوم، دخل البيت، دفع باب حجرة أم شوقي، كانت فوق كنبتها تتسلى باللب والسوداني حتى يعود زوجها الشاب من المقهى. صاحت به: مالك يا رجل؟!

اقترب منها في صمت، ومد يده نحو حجرها، ظنته سيأخذ حفنة من اللب والسوداني، لكنه أمسك جسمها برغبة واضحة، فقامت فزعة، تناثر ما في حجرها على الحصير، وصاحت بأعلى صوتها، وصفعته في عنف. وأقسمت أن يترك البيت والعمل عندها.

مر الوقت وسلامة صاحب المقهى جالسا في مكانه بجوار النصبة، المقهى خاويا تماما، أحد السكان مر به، فصاح:

- مالك سهران النهارده كده؟!

لم يجبه، قام نشطاً، وأعد الشيشة، وضع المعسل، ثم الفحم فوقه، وأسرع ناحية البيت الذي يقع فيه مقهاه. صعد السلالم مسرعا، دق باب الشقة في عنف، فصاحب الشقة متعود يطلب منه شيشة كل يوم، فُتح الباب بعد وقت ليس بالقصير، شاهد أمامه زوجة الرجل التي يعرفها جيدا، تصيح فزعة: مالك؟!

قال في دهشة: الشيشة.

جاء الرجل وأبناؤه وبناته مندهشين. صاح بصوت مرتفع وفي غضب:

- أنت اتجنيت، صحتنا من النوم.

ازدادت دهشة سلامة، الرجل يطلب شيشة كل يوم، فما الذي يغضبه الآن؟!

صاحت الزوجة: أحنا الفجر دلوقتي.

أراد الرجل أن يضربة، ويدفعه من فوق السلالم، لكن زوجته أدخلته وأغلقت الباب. ونزل سلامة بالشيشة مندهشا من غضب الأسرة كلها.

المقاهي التي اندثرت وانتهت

تنتشر المقاهي في الإسكندرية الآن، فالعاطلون لا يجدون مكانا يأويهم سوى المقاهي، ففي الصباح المبكر، تسير في ميدان محطة مصر، فتجد عمال البناء يجلسون على ارصفة حاملين أدوات عملهم: المطارق والقروانات .. إلخ في انتظار من يأتي لأخذهم للعمل. والمقاهي الكثيرة هناك مزدحمة بالرجال – خاصة الشباب – متراصين يتابعون التلفزيونات.

وفي حي بحري مقهى شهير اسمه " خبيني " مساحته كبيرة وبلا أبواب، مكان الباب قطعة قماش مهترئة ممن تستخدم في السرادقات، وهو مقهى لا يُغلق، يعمل ليلا ونهارا. ويتخذه بعض الرواد مكانا للنوم بأجر أقل من الفنادق بكثير. فالنوم على المقاعد المتراصة.

وهناك مقاهي اندثرت وتلاشت، مثل قهوة النجعاوي بشارع فرنسا، مقهى كبير، يرتاده رجال الأعمال. ويقدم جميع أنواع المشروبات. وحكى لي عمي بأن رجلا جاءه من رشيد، طالبا نشارة الخشب الخشنة والخشب الكسر (المتبقي من الصناعة) فقد قرر إقامة قمينة طوب، قالب من الخشب يملأونه بالطين ويدخلون الطين الفرن حتى يتحول إلى طوب أحمر يستخدم في البناء. كانت معظم الأفران والقمائن تعمل بالخشب والنشارة. واتفق مع عمي بأن تقف المركب بجوار كوبري راغب باشا، وتصل العربات ذات الجدران العالية بالنشارة يجرها الرجال، يرمونها في بطن المركب، حتى تمتلئ، وتعود ثانية لرشيد. ويوم الأحد

يتقابلان (عمي وصاحب قمينة الطوب) في قهوة النجعاوي، يتحاسبان ويدفع الرجل ثمن النشارة والخشب الكسر.

جنب عمي هذه الأموال واشترى بها البيت الذي يسكنه الآن.

التبغ

في بداية دخول التبغ لمصر، لم تكن لفائفه معروفة وقتئذ، ويتم التدخين بواسطة الشبك – أو النرجيلة – والمدخنون يحملون الشبك إما بأيدبهم، أو الخادم يحمله لهم لو كانوا أغنياء.

ويحتاج الشبك إلى تنظيف متواصل، شأنه شأن البايب الآن. لهذا كان الكثير من الفقراء يعيشون على تنظيف الشبك، ويبدو أن العائلات المسماة بالشبكشي كانت أصلا تتاجر في الشبك .

تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريم التبغ، وكثيرا ما طاردوا مدخنوه، تماما كما يطارد مدخنو الحشيش في أيامنا هذه. ويذكر الجبرتي في حوادث ١١٥٦، إن الوالي العثماني أصدر أوامره بمنع تعاطي الدخان في الشوارع وعلى الدكاكين، وأبواب البيوت، ونزل معه الأغا، ونادى بذلك وشدد بالإنكار والنكال بمن يفعل ذلك. وكان كلما رأى شخصا بيده آلة الدخان، يعاقبه، وربما أطعمه الحجر الذي يوضع فيه الدخان بما فيه من نار.

ما أذكره عن مقاهي الإسكندرية

والحديث عن المقاهي والقهوة يذكرني بساعي مدرستنا الذي يصنع الشاي والقهوة للمدرسين، وضبطوه وهو يجمع المتبقي في أكواب وفناجين القهوة ويعرضه للشمس للتجفيف ثم يعيد غليه ثانية.

وما أذكره أيضا إن في كل مقهى صينية ذات ألوان عديدة، وفي وسطها لمبة حمراء، تضاء عند الحاجة، تقدم عندما يأتي العريس للجلوس مع أصحابه، ويشربون على حسابه، قبل الذهاب إلى عروسه في المسرح أو السرادق الذي يقيمون حفل الزواج فيه.

ولا أنسى في يوم مولد النبي، تفاجأ بأكواب الشربات توزع على كل الجالسين في المقاهي دون ثمن، محبة في الرسول.

والكتاب والشعراء الذين أعتادوا على الكتابة في المقاهي، مثل الشاعر كامل حسني وصديقه الشاعر محمود الكمشوشي، وكنت كلما ذهبت " للقهوة التجارية " أرى الكاتب الإذاعي المشهور كمال عبد العزيز في مكان لا يغيره، ممسكا بالكتاب والورق، يكتب مسلسلاته الإذاعية وبرامجه وهو جالس في المقهى. وندوات كثيرة عقدت في مقاهي الإسكندرية، مثل ندوة أقلام الصحوة التي أنشأها محمد حافظ رجب بالقهوة التجارية ثم قهوة النيل بالمنشية، وندوة للشعراء والزجالين بقهوة البلعزي القريبة من ميدان محطة مصر.

هجرة الأجانب من مصر

يحكي فيلم لعبة الست من إخراج ولي الدين سامح، عن حسن أبو طبق، الذي يعمل موظفا في محل إيزاك عنبر، والذي تزوج من " لعبة "، الفتاة الشهية التي تحيي حفلات الزواج هي وأمها سنية جنح ووالدها إبراهيم نفخو، وابن خالتها محمود بلاليكا. ما يهمني في هذا الفيلم – الآن – هو وصول قوات هتلر إلى العلمين في الحرب العالمية الثانية، وخوف يهود مصر من مصير اليهود الذين يحتل هتلر بلادهم، فهم يسوقونهم إلى المعتقلات.

خاف إيزاك عنبر من هذا المصير، وقرر أن يُسرع إلى جنوب أفريقيا بعد أن ترك دكانه الكبير إلى حسن أبوطبق.

ذلك الذي حدث في فيلم لعبة الست، حدث كثيرا في حينا " غربال " ذلك الحي الشعبي، الذي يكثر فيه العمال الذين يعملون في محلات الأجانب، خاصة اليهود. وسأذكر هناك حكايات بعضهم:

(١)

جاء مصطفى حافظ من الصعيد، عمل في أعمال كثيرة، مرة جامع للحشف الذي يتجمع في مياه البحر، ويفسد على المصيفين متعة

الاستحمام، ثم حارساً لحجرة خلع الملابس في الشواطئ، وأخيرا تعلم قيادة السيارات وعمل سائق أتوبيس في هيئة النقل العام.

أحب البنت نوال – قريبته – فهي سمراء، مربرة، فخطبها، ورحبت الأسرة بهذا الزواج. وتحدد موعد حفل الزفاف.

مهران الشاب الصعيدي يسكن مع أمه وأخته التي كبرت ولم تتزوج، كوخا فوق سطح أسرة نوال. أمه وأخته يرتديان " شقة " وهي عبارة عن قماشة سوداء أو زرقاء تغطي الجسد من الرأس حتى القدمين. ويسمونهم في غربال بـ " الشراقوة " أحب مهران نوال، كان يراها تنشر الغسيل في الجزء الصغير الذي لم يشغل بالأكواخ، ويراها على السلم، فيبتسم لها، وترد ابتسامته بحياء. لكن عندما طلبها للزواج، عارضت الأسرة. والشاب قنع بنصيبه ورضى بما أراد الله له.

يعمل مهران لدى خواجة يبيع البن والشاي والسحلب.. إلخ في الإبراهيمية، وفجأة قرر الخواجة ترك الدكان بكل ما فيه له، بقدرة قادر أصبح مهران من الأغنياء. فأعاد المحاولة وطلب الزواج من نوال مرة أخرى. فاجتمعت العائلة وبحثت الأمر، ووافقت على الطلب. وعرضوا على مصطفى حافظ أن ينقل العطاء إلى أختها الأصغر، عارض مصطفى بعض الوقت، لكنه لم يجد سوى أن يوافق. وتزوج مهران نوال وأنجب منها، فغضبت أمه وأخته وانتقلتا للسكن في كوخ آخر في بيت آخر. وكانت أمه تكشف عن ثديها أمام الناس وتدعو على ابنها الذي تركهما في الفقر، وأعطى لزوجته وأهلها كل شيء.

(٢)

تزوج أحمد من فتاة يتيمة، أبوها مات وتركها هي وأختها التي تصغرها بعام ونصف. وأمهما – التي كانت غاية في الجمال – تفرغت لتربيتهما ولم تتزوج. مشكلة أحمد بعد أن أنجب ابنتين متتاليتين، إن العشرة قروش – أجره اليومي من الخواجة الذي يعمل عنده لا تكفي نفقات أسرته. فعاش مع والده ووالدته، يدفع لهما أجرته التي يحصل عليها مساء كل سبت، وينفق والده على البيت، لكن الوالد بعد أن أنجب ابنه الابنة الثانية، قال له:

عش وحدك، ودبر حالك بنفسك.

حزن أحمد، وبكت زوجته، وذهب إلى الدكان – الذي يعمل به – حزينا، الدكان في ممر بشارع توفيق. يبيع كل أنواع السندوتشات، والخواجة يسكب كثيرا، فالمنطقة مزدحمة بالمصالح الحكومية والبنوك والشركات، وتجد الدكان مزدحما دائما، مما اضطر الخواجة لأن يضع عربة كبيرة داخل الممر، يقف فيها رجب، زميل أحمد في الدكان. أحمد ورجب يتمتعان بالهدوء، ويبتسمان دائما، وزبائن الدكان يحبونهما.

سمع أحمد من الزبائن، إن الخواجة يستعد للسفر خارج مصر. فازداد حزنه، فوالده رفض الإنفاق عليه وعلى أسرته، وها هو الخواجة يبيع الدكان، وقد يأتي صاحب دكان يسيء معاملته، أو يطرده من العمل نهائيا.

في المساء، همس الخواجة في أذن أحمد:

لا تذهب للبيت، فسوف أتحدث معك في أمر مهم.

أخذه الخواجة وسار به بعيدا، ونظر خلفه ليستعجل رجب الذي لم يكن قد انتهى من غلق الدكان.

جلسوا ثلاثتهم حول مائدة في قهوة بالممر. قال الخواجة:

سوف أبيع الدكان، وأهجر مصر نهائيا.

أومأ أحمد برأسه حزينا، وقال رجب:

وهل وجدت مشتريا؟

قال الخواجة مبتسما:

سأبيعه لكما.

قال أحمد في يأس:

اطمئن، ليس لدي أي مدخرات. ووالدي طردني من رعايته ليلة أمس.

وأكمل رجب:

أنا وأحمد على فيض الكريم.

ابتسم الخواجة قائلا:

ثمن الدكان وصلني منكما منذ أن عملتما عندي.

كيف؟

قالها أحمد مندهشا:

فأجاب الخواجة:

دفعتما الأمانة والطاعة والحب لي، وهذا أثمن من المال.

لم تصدق زوجة أحمد بالتغييرات التي حدثت. أنجبت بعد ذلك أكبر أبنائها، واشترك أحمد ورجب في شراء بيت كبير، قاما بهدمه إعادة بنائه، كان أعلى بيت في المنطقة كلها، وافتتحا أكثر من محل في شارع توفيق وشارع شريف المجاور. وظلا على حالهما، يبتسمان للزبائن، ويعملان في همة، يضع أحمد أطعمة تصنعها زوجته له، لم تدخل الدكان من قبل (مثل البصارة والعجة)، فيقبل عليها الزبائن في رغبة شديدة.

(٣)

مات والد صابر وسعد، وتركهما صغارا، اضطرا لبيع قسم زبالة الذي ورثاه عنه لعبدالله نصار، وهو رجل طويل وعريض، يسكن شارع الكعبة، ويسير في شارع راغب باشا، بسرواله الأسود، والصديري. ويخرج علبة الكبريت من جيب سرواله، يبحث بين أعواد الثقاب، ويمسك قطعة أفيون، يضعها في فمه ويلوكها في أناة.

يأتي سعد وصابر إلى بيته مطالبين بثمن قسم الزبالة الذي حصل عليه، يدفع لهما بعد عناء عشرة قروش، ويعدهما بمبلغ آخر لما يلم الأجرة من السكان.

يشتري صابر الطعام له ولأسرته. فقد تزوج من فتاة فقيرة مثله، كانت أسرتها تسكن كوخا ملاصقا لكوخهم، فوق سطح بيت في غربال. وسعد يسكن وحده في كوخ آخر، في بيت قريب.

أراد صابر أن يعطي أخاه خمسة قروش، لكن سعد أصر أن يأخذها سعد وحده، فهو عنده زوجة الآن. وعندما حاول صابر معه، صاح فيه:

سوف اتصرف.

يعمل صابر صبيا في دكان حلويات مشهور في شارع كنيسة الأقباط. المحل له أكثر من مخزن في المنطقة، والخواجة يشتري أفخر أنواع الشيكولاتة، وفي المواسم الإسلامية، يقف الزبائن صفوفا لشراء الحلوى. بينما يقف سعد قريبا من الدكان الذي يعمل به أخوه، ويبيع الجيلاتي في الصيف، وفي الشتاء يعمل في القهاوي.

جاء ساكن في البيت الذي يسكنه سعد إلى الدكان، استأذن صابر من مهدي رئيس العمال في الدكان، وسار مع الساكن بعيدا، فقال له:

أخوك سعد يسعل بطريقة تخوف.

ماذا تقصد؟

أخشى أن يصاب بالسل.

قالها الرجل وسار، وعاد صابر حزينا، ردد لنفسه: حالاقيها منين والا منين؟!

تردد سعد على مستشفى الصدر في كوم الشقافة، فأعطوه أدوية مقويات محذرا الطبيب من تدخين السجائر.

كان صابر يستأذن من صاحب الدكان، أو مهدي رئيس العمال في المحل، ويذهب على قهوة مجاورة للكنيسة المرقسية، يتناول مع أصدقائه – العمال في محلات قريبة – الغداء.

هناك قال شاب يعمل في محل أحذية حريمي:

الخواجة سيبيع الدكان.

فوجئ صابر بذلك الخبر، وشعر بالخوف على مصيره. وانتظر أن يأتي المالك الجديد، ويعيد تقييم العمال، حتما سيعتمد على مهدي رئيس العمال.

عندما عاد صابر تابع مهدي في اهتمام شديد، وفكر في الاقتراب منه، ليقيمه تقييما يجعل المالك الجديد يعطيه مبلغا أكبر مما يتقاضاه الآن.

ذهب صابر مع عامل آخر إلى المخزن لإحضار بضائع طبقا لأوامر مهدي رئيس، قال صابر لزميله:

سمعت عن بيع الدكان؟

قال زميله:

إنه خبر قديم، الخبر الجديد أن الخواجة سيتنازل عن الدكان والمخازن لأحد عماله.

شرد صابر بعض الوقت وقال:

أكيد سيتنازل عنه لمهدي، فهو أقدم عامل عنده، ورئيس عماله.

فقال الزميل:

الذي لا تعرفه إن الخواجة يكره مهدي، فهو يعلم إنه يسرقه، ولن يتنازل عن الدكان له.

عاد صابر إلى بيته مهموما. في اليوم التالي، فوجئ بالخواجة يقترب منه وهو يضع الصناديق بعضها فوق بعض، ويقول له:

اتبعني.

فتبعه، ظنه سيأخذه معه إلى السوق لحمل ما يشتريه، وينقله إلى البيت.

وقفت سيارته أمام عمارة كبيرة في المنشية، سار الخواجة دون قول، وتبعه صابر صامتا. صعدا بالمصعد إلى الدور الرابع، ودخلا مكتب محامي شهير.

جلس الخواجة أمام المحامي الذي انشغل طويلا بمتابعة صابر. قال الخواجة لصابر:

اجلس.

جلس أمامه مترددا، أخرج المحامي أوراقا من مكتبه، وقعها الخواجة، ثم قدمها لصابر قائلا:

وقع هنا.

أمسك صابر بالقلم مترددا. صاح المحامي في لغة آمرة:

وقع.

قال الخواجة لصابر:

من الغد سيكون المحل والمخازن ملكك. أسبوع بأكمله أراقب كل عمال المحل، وتوصلت أخيرا أنك أحق من يمتلكه.

هروب الأزواج من زوجاتهم

كارين ماركس – امرأة أمريكية – متزوجة من آدم ماركس " ٤٨ سنة ".

في عام ٢٠٠٥ تركت كارين زوجها في البيت وذهبت ككل يوم إلى عملها، فزوجها ترك عمله منذ أيام قلائل، ويبحث الآن عن عمل آخر.

عند عودتها اشترت بعض لوازم البيت، ولم تنس أن تشتري له هدية بمناسبة عيد ميلاده الذي سيحين بعد يومين فقط.

دقت جرس الباب، لكنه لم يفتح، ظنته خرج لشراء شيء، فاضطرت أن تضع بعض أكياسها بجوار الباب، وأخرجت مفتاحها من حقيبة يدها، وفتحت الباب، كانت سعيدة.

وضعت الأشياء في مكانها، وخلعت ملابس الخروج واستعدت لإعداد وجبة عشاء لها ولآدم زوجها، لكنه لم يأت. قالت لنفسها، "حتما هو مازال يبحث عن عمل جديد، وربما حدد له صاحب العمل الجديد موعدا في المساء" لكنه لم يعد في اليوم التالي أو الثالث.

مرت سنوات طويلة جدا، وكارين مازلت تنتظره، نصحتها زميلتها في العمل بأن تنساه، خاصة أنها لم تنجب منه، وأن تبحث لها عن رفيق آخر، لكنها تمسكت به، وسألت عنه في كل مكان.

سافرت لبلدة قريبة لمقابلة أمه لتسألها عنه، لكنها لم تجدها، أخبروها هناك إن الأم تركت البلدة وانتقلت لبلدة أخرى.

أخذت بيانات جيران الأم، ووعدت بالاتصال بهم فربما يجدون وسيلة للاتصال بأم زوجها الغائب.

بعد سنوات، اتصلت بها إحدى جارات أم آدم ماركس القدامى، وأخبرتها بأنها وجدت طريقة للاتصال بالأم. فأسرعت كارين لمقابلة الأم التي أكدت لها أن ابنها متزوج منذ تسع سنوات وسعيد في زواجه، وقد ظنت الأم إنه طلق كارين قبل الاقتران بالزوجة الجديدة.

اتصلت كرين بالشرطة وطلبت منها أن تحقق في القضية، ووجهت إلى الزوج تهمة الجمع بين زوجتين والاحتيال والكذب لاستصدار وثيقة زواج.

قرأتُ هذه الحادثة فتذكرت قصة اسمها " الحاوي " كتبها الدكتور مصطفى مشرفة ضمن مجموعته القصصية " هذيان "، قرأت هذه القصة منذ سنوات طويلة، ومازلت أتذكرها.

بحثت في مكتبتي عن الكتاب حتى وجدته.

تبدأ القصة بعبارة كنا في رأس البر، وكان فيه ناس علشان يسلوا المصيفين. وبينهم كان فيه واحد حاوي اسمه سفروت، وكانت له ألعاب كثيرة يسلي بيها المصيفين.

إن سفروت هذا يضع زوجته في صندوق، ثم يقول: " جلا جلا " ويفتح الصندوق، فيجده المتفرجون خاويا من كل شيء.

زوجة سفروت ما أن تدخل الصندوق ويغطيها زوجها، حتى تفتح طاقة في المسرح الخشبي بمفصلات، وتنزل تحت المسرح، وتسير، ثم تعود ثانية، عندما يصيح زوجها ثانية: جلا جلا.

في ليلة من الليالي، شاهد بولس وزوجته دميانة — اللذان يصيفان في رأس البر – " لعبة " سفروت، فأسرع بولس خلفه بعد انتهاء الحفل، بعيدا عن زوجته. وقال له:

– لعبتك دي، مش على قد كده.

فضاق سفروت من تعليق بولس، فالرجل كل ما يهمه أن يسعد المشاهدين، وأن يرضى عنه صاحب المسرح، ويدفع إليه أجرته هو وزوجته، فقال: إيه إللي مش عاجبك في لعبتي؟!

قال بولس: ما كل الناس عارفة إن فيه فتحة في الصندوق، وفتحة في المنصة بتنزل مراتك منها وتختفي.

فقال سفروت: أمال عايزني أعمل إيه؟!

فرد بولس: الشطارة أنك تخفي واحد من المتفرجين.

فصاح سفروت: وحاجيب منين واحد من المتفرجين يقبل يعمل كده؟

فقال بولس بحماس شديد: أنا مستعد.

فمط سفروت شفتيه وقال: خلاص ما دمت مستعد أنا كمان مستعد.

وفي اليوم التالي، عمل سفروت ألعابه العادية وبولس يتابعه باهتمام وزوجته غير سعيدة بما ترى، فقد شاهدت كل هذا بالأمس. وعندما وصل سفروت لحكاية الصندوق، صاح:

– مين فيكم يحب يختفي؟

فوقف بولس، وقال: أنا.

فشدته زوجته دميانة قائلة: يا رجل اعقل بلا قلة قيمة.

وصعد بولس على المسرح، وأدخله سفروت الصندوق وغطاه صائحا: جلا، جلا.

واختفى بولس تماما، وصاح سفروت:

– ودلوقتي حاقول جلا، جلا، حايرجع الأخ إللي تبرع يشتغل معايا.

وقال جلا جلا عشرات المرات، وبولس لم يعد. فصاحت زوجته دميانة وهي تبكي: رجعلي جوزي تاني.

حاول سفروت كثيرا دون فائدة.

فصاحت دميانة: أنت حاترجعلي جوزي والا اشتكيك للبوليس؟!

وصاح سفروت طويلا، وبولس لم يعد.

وذهبت دميانة للشرطة واتهمت سفروت بأنه سحر زوجها، وفشل في إعادته إليها ثانية.

بحثت الشرطة في كل أرجاء رأس البر، فلم تجد بولس، ودميانة لم تكف عن البكاء والنواح، وسبت سفروت الذي سحر زوجها وفشل في إعادته إليها.

وصاح ضابط البوليس في دميانة: يا ست اطلبي العوض في جوزك، باين عليه اتسحر بجد

مرت على هذه الحادثة حوالي سنة، وذهب سفروت لتقديم ألعابه في بور سعيد. فقابل رجلا، وتذكر إنه قابله من قبل، ثم تذكره، فصاح: بولس، أنت بولس.

فصاح بولس: نعم، أنا بولس.

فقال سفروت: وإيه إللي خلاك تعمل كده؟

فقال بولس: أنا طول عمري بكره مراتي، وعاوز أهرب منها، ووجدت أن لعبة الصندوق هي أفضل طريقة للهرب منها.

فقال سفروت حزينا: بس أنت كنت حاتوديني في داهية.

فقال بولس: أعمل إيه، دي ما بتفارقنيش لحظة.

فضحك سفروت وقال: وناوي تروح فين؟

فقال بولس: حاشتغل على مركب وأسيب لها البلد بحالها.

وفجأة سمعا صوت من تنادي:

– بولس.. بولس.

فضحك سفروت قائلا: أينما تكونوا يدرككم الموت.

فقال بولس: ما تقدرش تسحرني تاني؟

فأجاب سفروت: لا يا عم، الله الغنى كفاية إللي جرالي من تحت راسك.

وبعد لحظة وصلت دميانة ولبدت في ذراع جوزها وكان باين على بولس إنه امتثل لأمر الله. وبص عليهم سفروت وقال بشكل فلسفي: الدنيا دي ياما فيها عجايب.

طوال هذه السنين وأنا معتقد أن العالم علي مصطفى مشرفة هو كاتب هذه المجموعة القصصية، وإنه مؤلف رواية " قنطرة الذي كفر" لكن منذ أيام قلائل، اتصلت بالصديق محمد السيد عيد، وسألته – خاصة إنه كتب مسلسلا تليفزيونيا عن " علي مصطفى مشرفة "، فأكد لي أن الدكتور مصطفى مشرفة هو الأخ الأصغر لعالم الرياضيات المشهور علي مصطفى مشرفة. ثم اتضح لي إن الأمر كان سهلا ولكنني عقدته، فعندما بحثت في النت عن ذلك، وجدت مقالتين إحداهما للصديق فؤاد مرسي نشرها في مجلة الثقافة الجديدة عدد نوفمبر ٢٠١٢، ومقالة للأستاذة سناء البيسي نشرتها بجريدة الأهرام، يؤكدان فيهما حقيقة الدكتور مصطفى مصطفى مشرفة.

فهو من مواليد ٢١ مايو ١٩٠٢ وتوفي في ٤ ديسمبر ١٩٦٦. وقد كان عضوا بالتنظيم السري لثورة ١٩١٩ والذي كان يرأسه الزعيم سعد زغلول واشترك في أعمال فدائية موجهة ضد الجيش الإنجليزي المحتل.

وكتبت سناء البيسي مقالها الرائع – كعادتها – كتبت جزءا كبيرا منه بالعامية، مشاركة منها للمؤلف الدكتور مصطفى مصطفى مشرفة في روايته الرائدة قنطرة الذي كفر، التي كتبها بالعامية. فقالت: كنت فاكرة

إن مصطفى هو علي، وإن العالم المصري – نظير أينشتاين – هو في نفس الوقت صاحب الرواية الخالدة " قنطرة الذي كفر ". وقعدت أفتي وقعدت أحكي عن السر الدفين في زواج العلم بالأدب، وعدت الحكاية للعلالي بوحدة المعرفة الإنسانية، وإن الأديب الذي لا يمتلك منهجا علميا في كتاباته، لا يمكن التفريق بينه وبين كاتب العرائظ على باب المحكمة، وأن العقل الإنساني الذي ابتكر العلم قد ابتكر الأدب وهو عقل واحد في جوهره لو أصيب بأي انفصام أو انفصال، فقل على العالم السلام.

ونعرف أن والد كاتبنا هو الشيخ مصطفى عطية مشرفة، أطلق على ابنه الكبير اسم علي. ثم أنجب بعده فوزية وعطية وحسن، وآخر أبنائه أسماه مصطفى على اسمه. مما أدى إلى أن نسب الناس مجد مصطفى مشرفة إلى أخيه العالم علي مصطفى مشرفة.

الجنس والسحر

كنت صديقا لشاب يمتلك والده عمارة كبيرة في حي لوران، فنقضي أوقاتنا فوق سطح بيتهم، حيث خصص والده حجرتين، وبجوار كل حجرة، دورة مياه.

وقابلنا خال صديقي، كان طويلا وعريضا، وبعين واحدة. ويعمل مقاولا للأدوات الصحية. فحكى – بلا حياء – عن مغامراته في اصطياد النساء بالسحر. فما إن يعجب بواحدة، حتى " يعمل " لها عملا، يجعلها تترك زوجها وأولادها، وتذهب إليه، ويترك هو بيته وزوجته وأولاده، ويعيشان معا بعيدا عن أسرتيهما.

وقال لنا: إن لديه كتبا فيها طريقة عمل السحر.

وكان صديقي مولعا بفتاة تسكن في الدور – أسفل السطح – مع أسرتها التي جاءت من الإسماعيلية في فترة " التهجير " قبل حرب أكتوبر ٧٣. فكان يراقبها، وعندما يراها آتية من الشارع، يسرع إلى زميل لي في العمل أن يكون مقيم شعائر في مسجد قريبا من " البياصة " في الإسكندرية، وكان يحكي لي يوميا عما يلاقيه في عمله سطح البيت ليشاهدها وهي تخلع ملابسها دون أن تلحظه أو تراه.

وطلب صديقي من خاله كتاب السحر، توقعت أن يرفض، خوفا على ابن أخته، لكنه جاءه بالكتاب، فجلست أنا وصديقي محاولين تحقيق المكتوب في الكتاب – لكن لم يحدث شيء، فالفتاة لم تحبه ولم تسأل عنه. فقالوا لنا إن الأمر ليس سهلا، فلابد من " أستاذ " تتعلم على يديه ويقوم بتدريبك وتعليمك – وتتم الخطوات الأولى تحت إشرافه. ولأننا لم نجد هذا " الأستاذ " فلم نتقدم خطوة واحدة.

ويحكي الممثل يوسف وهبي في كتابه " عشت ألف عام" من إنه أحب فتاة يونانية وتعلق قلبه بها، لكنها كانت تحب يونانيا مثلها وتعيش معه في شقة، بينما يوسف وهبي مازال تلميذا في المدرسة، ومعه زميل من الواحات، يعرف مدى حبه لها، فقال له: – أريد اسم أمها، وأثرها.

فعرف يوسف وهبي اسم أمها، وسرق منديلها وهو جالس معها وسط مجموعة من الأصدقاء، وسافر زميله إلى موطنه في الواحات في إجازة آخر العام. وفوجئ يوسف وهبي بوالده يعنفه ويلومه للخواجاية التي تتصل به تليفونيا لعشرات المرات، فقد " عمل " زميله السحر في الواحات وها هو قد أتى أثره، فتركت اليونانية عشيقها وجاءت إليه صاغرة ذليلة، فأسكنها في حجرة، وكان يسرق لها الطعام من " كرار " بيتهم.

وأذكر جارتنا التي تشاجرت مع زوجها، وقرر أن يطلقها، فكانت تقول لمن حولها في توسل: " بس لو حد يجيب لي حاجة من لبسه " تريد أن تعمل له عمل فيأتي إليها ذليلا.

وكتبت الصحف في ٢٣ مايو ٢٠١٣ عن شاب سعودي أحب زوجة صديقه الذي يعرفه منذ أكثر من خمسة عشر عاما – فبحث عن ساحر، أعطاه مبلغ ١٠٠ ألف ريال (٢٦.٦٦ ألف دولار) بهدف تطليق زوجة صديقه والتفريق بينهما رغبة منه في الزواج بها بعد طلاقها.

وبدأ الساحر في عمله، لكن الزوج كان محصنا – فأفشل عمل الساحر وأبطل سحره، وبذلك احتفظ بزوجته.

وقد سأل سلفي شيخه ياسر برهامي عن موضوع يؤرقه، وهو هل الدعاء بقوة انتصاب العضو الذكرى وتأخر الإنزال يدخل في الاعتداء بالدعاء؟

فأجاب برهامي بأن هذه آجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَآثَارٍ مَوْطُوءَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لا يُعَجِّلُ شَيْئًا مِنْهَا قَبْلَ حِلِّهِ، وَلا يُؤَخِّرُ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ حِلِّهِ.

يعني لا يفضل الدعاء في مثل هذه الأمور، وترضى بما قسمه الله لك.

وفي الكونجو أيضا، وفي أبريل ٢٠٠٨، سرت إشاعة، في العاصمة " كنشاسا "، عن انتشار «السحرة لصوص القضيب»، الذين يقومون بتقليص حجم العضو الذكري للضحايا، أو يسرقونه بحيلهم، وذلك لاستخدامه في علاج آخرين من المصابين بمرض «الإيدز». ونجم عن ذلك اندفاع العامة للهجوم على كل من أشيع عنه ذلك، وضربه حتى الموت، وأسفر ذلك عن قتل اثني عشر ساحرا، وفقا لتقرير وكالة رويتر.

وزوج، فشل في التعامل مع زوجته أكثر من مرة، فدق باب جاره قرب الفجر، وما إن رآه حتى أمسك به، وأخذ يضربه في عنف، متهما إياه بأنه " عمل " له سحر من خلال الحائط الذي يفرق بين الشقتين، مما أدى لتكرار فشله في لقاء زوجته.

وقد تعرض ٤٠٠ رجل هندي لعمليات جراحية لإزالة الخصيتين بمحض إرادتهم، وذلك بعد أن دعاهم زعيمهم الديني جورميت رام رحيم سينغ – زعيم طائفة "ديرا ساشا سودالا " الدينية – للقيام بذلك من أجل التقرب إلى الإله.

وبحسب صحيفة "ميرور" البريطانية، فإن هذا الزعيم الديني دعا أتباعه، الذين يفوق عددهم ٥٠ مليون شخص، إلى إجراء هذه العمليات فاستجاب ٤٠٠ شخص فقط من أتباعه لدعوته، وأجروا العمليات في مستشفى يملكه هو، وذلك في عام ٢٠٠٠، إلا أن بعضا منهم تحدث ولأول مرة مؤخرا عن هذه العمليات، بعد أن قام مكتب التحقيقات المركزي في الهند بفتح قضية حول هذا الموضوع. وذكرت مصادر في المكتب أن سينغ يواجه تهمة الاعتداء الجنسي على عدد من إتباعه الإناث، بالإضافة إلى التسبب بأضرار جسدية خطيرة لأربعمائة رجل. وأشارت نفس المصادر إلى أن القضية تتعرض للعديد من العراقيل بسبب نفوذ سينغ الواسع، وبسبب قلة الشهود، الذين يخافون على أنفسهم وعائلاتهم، إذا أدلوا بشهاداتهم بشكل رسمي في المحكمة.

يعني هذا الزعيم أجرى لاتباعة عملية إخصاء، ليمنعهم من زوجاتهم ويتمتع هو بهن.

وقد تمكنت مباحث الخصوص من ضبط مؤذن بالأوقاف يقوم بممارسة أعمال الدجل والشعوذة على السيدات، ويوهمهن بقدرته على حل مشاكلهن الزوجية ومساعدتهن على الإنجاب مقابل مبالغ مالية وممارسة الرذيلة.

فصاحبة محل كوافير متزوجة ولم تنجب، تعرفت عليه من خلال إحدى القنوات الفضائية فطلب منها مبلغا ماليا قدره ١٢ ألف جنيه، وأثناء مقابلته طلب منها ممارسة الرذيلة معها، محاولا إقناعها أن هذه هي طريقته في علاج مرضاه. لكنها رفضت، وأبلغت الشرطة عنه، فتم القبض عليه. (وهذه طريقة علاج بعض الحالات – فهؤلاء الفسقة لديهم إحساس بأن مانع الحمل هو الزوج – الذي عادة ما يمتنع عن الذهاب لطبيب، ويزعم دائما أن زوجته هي السبب – فيقوم هذا الدجال المشعوذ بدور الزوج، فتحمل المرأة ثم تنجب) واستطاع ، فقد جاءته إحدى سكان المنطقة – وهي أرملة شابة وقالت له:

– جاري يشاغلني، وأنا غير قادرة على احتمال إغرائه، ولا أستطيع الزواج منه زواجا شرعيا، لأنه متزوج، ولأن أسرتي ستغضب لذلك. وسوف أتزوجه عرفيا، لا تقل لي حرام، فأنا غير قادرة على الاحتمال.

وجاءته امرأة شابة من المنطقة، أخبرته بأن صديقة لها ذهبت لساحر، مكانه قريب جدا من المسجد، لكي يساعدها لكي يكف زوجها عن الإساءة إليها، فقدم إليها مشروبا شربته، فأحست بغيبوبة، وصارت بين النوم واليقظة، ومارس الرجل الجنس معها.

عرف زميلي أن المرأة تتحدث عن نفسها، ففي خطبة الجمعة، حذر رجال المنطقة من خطر هذا الدجال، وأن هذه المرأة التي جاءته، قد تكون زوجة أحدكم، أو ابنة أحدكم.. إلخ.

أشعل زميلي المنطقة كلها، فثاروا حوله، وذهبوا لإدارة المساجد في شارع فرنسا واشتكوه، فعنفه رئيسه هناك، قائلا:

– كدت تحدث فتنة في المنطقة كلها.

ونقله لمسجد آخر.

هناك صلة وثيقة بين الجنس والسحر – حكايات منتشرة، خاصة في الريف والأحياء الشعبية في المدن، عن قدرة البعض على " ربط " الرجال. ويحكون إن رجلا ضريرا، كانت يتتبع أخبار الزواج في قريته، فيذهب للعريس، ويصافحه، مجرد أن يصافحه، فيفشل الزوج في التعامل مع امرأته، فيضطر أن يدفع له، لينهي "ربطه" .

وإن كبار البلدة قد اجتمعوا بهذا الرجل الضرير، وطلبوا منه أن يكف عن ذلك، فقال: ومن أين سأعيش؟

فقرروا له مبلغا من المال، يدفعونه له شهريا – وامتنع عن إيذاء الناس.

لكنهم تباطؤوا في الدفع له بعد وقت قصير، فانتظر حتى مات أحد كبراء القرية، وذهب لصوان العزاء وصافح هؤلاء الكبار، فإذ بهم يفشلون جميعا في التعامل مع نسائهم، فهرعوا إليه، معتذرين، وآسفين، وعادوا لدفع المقرر له.

الذين يدفنون أحياء

يَحكي فيلم " جواهر " (١٩٤٩) لهاجر حمدي ومحمد كامل المصري (شرفنطح) ومحمود المليجي عن رجل بخيل يحس بتعب،ويغمى عليه فيظنونه قد مات؛فيضعونه في المقبرة،وعندما يأتي لصان لسرقة كفنه يجدانه حيا فينقذانه.

هذه القصة ليست بعيدة المنال في مصر، بل حدثت مرات عديدة ومازالت تحدث.

فقد كان أبي يحكي متفاخرا بأبيه،بأنه في آخر أيامه كان يدعو الله قائلا :

– ربنا يعمي حكيم الصحة عني .

فقد كانت بلدتنا – المراغة – تعاني – في ذلك الوقت – اضطهادا من الدولة بسبب غضب الملك فاروق على الشيخ محمد مصطفى المراغي – شيخ الأزهر – الذي طلب الملك منه أن يصدر فتوى بعدم زواج فريدة – طليقة الملك – من رجل بعده.

فرفض الشيخ المراغي قائلا له :هو أنت كنت سيدنا محمد ؟!

فكان طبيب الصحة يغيب عن الحضور إلى المراغة،ويظل الميت منتظرا بالساعات الطوال،وأهله يتعذبون؛خشية أن تفوح رائحته .

لكن جدي لأبي كان طيب الحظ، فقد ذهب أحد أقاربه لمقابلة طبيب الصحة،منتظرا أن يسوف في الحضور –كعادته – وأن يعاني أهل الميت من تجاهله له،لكن تليفون دق فجأة،ولابد أن يذهب إلى جهة ما حالا،فقال للرجل:

– هات الورق، (ووقعه بسرعة) .

وظلت الأسرة تحكي عن هذه الكرامة التي لا تحدث إلا للقللين،فرحين لأن الطبيب وقع على شهادة الوفاة دون أن يفحص الجثة.مع أن الصح أن يأتي الطبيب،ويفحص الجثة بنفسه؛خشية أن يدفن الرجل دون أن يموت.وهذا ما يدّعونه على الفنان الراحل صلاح قابيل، فيقولون أن بعد دفنه،فتحوا المقبرة لدفن ميت آخر،فوجدوه جالسا،بمعني أنه أفاق بعد دفنه؛وحاول الخروج من المقبرة،لكنه لم يستطع فمات في مكانه.

وكان في حينا رجل اسمه " الميت "، يقال إنه دُفن في مقابر العمود وعاد ثانية بعد أن أفاق.وذلك لأن بعض أطباء الصحة لا يكلفون أنفسهم بالذهاب لفحص الجثة، ويوقعون على شهادة الوفاة في مكاتبهم. وقد حدث في أسرتي أكثر من حادثة تؤكد هذا:

جاءت عمتي منذ سنوات طوال إلى بيتي في الصباح،وقالت لي:

– ابن عمك إبراهيم مات، وسيدفن بعد ساعات قلائل.

فلم أذهب إلى العمل؛ وذهبتُ إلى بيت عمي، وقفنا في الشارع استعدادا لدفنه، كان طفلا لم يتجاوز الثالثة، وقد استخرجوا له شهادة

الدفن، وقعها طبيب الصحة دون أن يأتي إلى البيت،وفجأة حدثت جلبة في البيت، فقد صحا الولد،وعاش، وتزوج وأنجب. وكانت عمتي إلى أن ماتت وهي تمازحه قائلة : يا أبو موتة.

وذهبتُ منذ سنوات إلى مكتب الصحة لاستخراج شهادة وفاة لابنة أختي الطفلة التي ماتت، وقابلت "التربي" الذي يجلس دائما بجوار باب الصحة ؛ تحسبا لوجود حالات موت.قال لي وهو ينظر في ساعته: الدكتور في الصحة الكبيرة بشارع محرم بك، على وشك الانصراف ولكي يوقع الشهادة وتدفن البنت اليوم لابد من ركوب تاكسي لنلحقه.

وبالفعل ركبنا تاكسي، وكان الطبيب داخل سيارته في شارع محرم بك، فنادى " التربي " وأشار إليه. فتوقف ووقع الشهادة وهو يسند الورق على صاج سيارته. وقع الشهادة دون خوف، غير مدرك بأننا لسنا أطباء ومن الممكن أن نكون مخطئين في ظننا؛ وأن تكون الطفلة مازالت على قيد الحياة؛ ومغمي عليها.

حتى عندما مات ابني، وقع الطبيب اعتمادا على الروشتات التي تؤكد أنه مصاب بمرض خطير.

وقد حكى لي أحد أصدقائي بأن أمه عندما ماتت في المساء، ظل مستيقظا بجوارها وحده،يحرك جسدها من وقت لآخر؛ علها تقوم من غفوتها، خشية أن تدفن دون أن تموت .

وقد كُنت في شبابي نائما لدى عمي، فأيقظني قبل الفجر بقليل لأن ابنه الصغير حرارته مرتفعة، فذهبت لأستدعي عربة حنطور من

الموقف بشارع إيزيس القريب من البيت، وركبنا العربة أنا وهو وزوجته وابنه المريض،سأل العربجي :

– إلى أين ؟

– مستشفى الحميات .

سار بنا الرجل حتى وقف أمام باب في مبني مستشفى الحميات، أعرفه جيدا فالمنطقة حوله يتخذونها سوقا بالنهار، قال العربجي لي :

– أدخل وشوف فيه استقبال هنا.

فقد كان الباب الثاني بعيدا جدا. دخلت من الباب، كانت الإضاءة ضعيفة، وطفل في حوالي السادسة عاريا ومغطي بقماش أبيض قصير يكشف عن ساقيه، وجسده يرتعش.

لقد دخلت مشرحة مستشفى الحميات عند الفجر، وطفل موضوع فوق الرخام لم يمت،لا أدري لماذا تعجلوا واحضروه من فوق سريره قبل أن يموت، ربما أكد الطبيب أن مافيش فايدة، فنقلوه إلى المشرحة .

عدت إليهم حزينا، وشاردا،كيف دخلت المشرحة وفي هذا الوقت المتأخر، وهل حقا كان الطفل يرتعش، أم أن الخوف جعلني أرى هذا؟!

مر على هذه الحادثة أكثر من أربعين عاما، ومازلت أذكر ارتعاش الجسد فوق الرخام.حكيت لهم عما رأيت فلم يصدقني أحد. قالت زوجة عمي:

– أسكت (وشدت على يدي ظناً منها إنني شاهدت عفريتا).

وسار العربجي بنا إلى باب الاستقبال البعيد.

ومنذ أيام قلائل دُفن شاب بعد أن صرخت زوجته وولولت، لكن شقيقه أرسل خطاباً بعد عدة أيام من دفنه؛ بشكه في أن أخاه قد قتل، وأخرجوا الجثة من مدفنها وفحصوها فإذ بالشاب مخنوقا بيد عشيق زوجته التي ضربته بيد الهون. كان أملي أن أقرأ بعد عدة أيام أن النيابة أمرت بالتحقيق مع الطبيب الذي وافق على دفنه دون أن يفحصه، فلو عوقب واحد؛ سيهتم الباقي ولن يدفن المصريون أحياء بعد ذلك

حركة البيع والشراء في غربال

تذهب البنت كاملة إلى العربي تاجر علب الصفيح، تخبره إن زوجة خالها مسعود تريده لكي يشتري العلب التي تجمعها في منور مجاور لحجرتها الكبيرة. يقول العربي لها:

- طيب روحي وأنا جاي وراكي.

يأتي العربي وهو من المنطقة، والده يمتلك بيوتا كثيرة في الحي، ويمتلك قسم زبالة كبير في حي كليوباترا، يعمل فيه أخواه وعمالهما، واختار العربي مهنة جمع علب الصفيح التي يجدها الزبالون بكثرة في زبالتهم: علب السلمون والمربة والسردين..إلخ.

يدخل العربي وصبيه - الذي يحمل الجوالات الخيش-؛المنور.

يتابعان العلب الكثيرة المتجمعة والمتناثرة. المنور ضيق ولا يصلح معه تجميع العلب ووضعها في الأجولة، لذا يطلب العربي من أطفال البيت، وهم كثر، بنقلها من المنور إلى دخلة البيت الكبيرة والواسعة، ثم يمسك صبيه الجوال ويفتحه، ويعد العربي كل تورة (أربعة)، ثم يرميها داخل الجوال، زينب - زوجة مسعود - تتابعه بحياء أنثوي، وتعد معه، فقد اتفق معها بأن التورتين بقرش صاغ. تخجل هي منه، لا تفاصله في السعر، يخرج نقوده ويضعها في يدها، فتأخذهم مبتسمة، فيلتف

الأطفال حوله، مطالبينه بأجرتهم، فيعطي كل منهم خمسة مليمات لكن البنت كاملة تقول له:
– عايزه صاغ، فأنا التي ناديتك.

فيعطيها القرش، ويحمل هووصبيه الأجولة، يضعانها فوق العربة الصغيرة المنتظرة في الخارج. هذه العلب الصغيرة تتحول بعد ذلك إلى أشياء كثيرة، منها الحصالات التي يوزعونها على محلات البقالة والخردوات.

يأتي عمال مسعود، بزنبيل فيه علب الصفيح وأسلاك الكهرباء، وآخر يضعون فيه الزجاج المكسور، وعلب الدواء الفارغة، و" قفة " صغيرة يضعون بها الملاعق والشوك والأقلام والأكواب السليمة التي يجدونها في الزبالة.

لا تبيع زينب الأكواب السليمة، وإنما تضعها في حوض تحت السلم لا يستعملونه، ومن يحتاج لأكواب من سكان البيت، يأخذ دون أن يستأذنها.

تذهب البنت كاملة لاستدعاء " الجرنش "، وهو تاجر في الشارع العمومي، يشتري الزجاجوالحديد، والنحاس والقصدير وباقي المعادن التي يجدها الزبالون في زبالتهم، قبل أن يأتي تشعل زينب النار في أسلاك الكهرباء الكثيرة المتجمعة عندها، فتزيل النار الطبقة البلاستيكية التي تغطي الأسلاك. وتبيعها مع قطع النحاس التي جمعتها.

الجرنش، طويل وأقرع، وملابسه متسخة دائما من حمله للأشياء العالق بها التراب، يحسب الحساب، فتفاصلة زينب بجرأة، وتطالبه بالمزيد. فيعطيها الثمن، ويرفض أن يدفع مليما لأطفال البيت، فتقوم هي بذلك.

افتتح الجرنش دكاناً مواجهاً لقهوة بخيت الحلواني، عمل فيه هو وابنه جابر، يشتري من الزبالين ما يجمعونه من معادن، وعندما راجت تجارته، استأجر دكانا آخر في البيت المجاور جعله خصيصا للحديد.

شباب الحي يعرفون أن النحاس والقصدير والزنك أسعارهم مرتفعة، فيحرصون على جمعها، وعرضها عليه، فيضعها على ميزانه ويعيدها إليهم قائلا:

– حوش عليهم.

فالكمية قليلة، ولا تسمح بالشراء، من هؤلاء أحمد حسنين الذي يدرس في مدرسة الصنايع الإعدادية بالشاطبي. والذي يسكن في الدور الثاني العلوي ببيت مسعود، يطل من نافذة حجرتهم فيرى الكميات التي تجمعها زينب ، فيعمل " لويح" ، وهو قطعة طوب صغيرة معقود بها حبل طويل، ويحاول سرقة قطع النحاس أو أسلاك الكهرباء التي تجمعها زينب، لكي يبيعها للجرنش.

تخزن زينب الخبز الكثير الذي يأتي به عمال زوجها، فيأتي المشترون من أماكن بعيدة ويشترونه بالصفيحة. يطعمون به طيورهم التي يربونها في بيوتهم.

وتسمع وهي داخل حجرتها حسن، فتسرع بإرسال البنت كاملة لاستدعائه، يأتي حسن، يضع قفته الكبيرة على بلاط دخلة البيت. هو رجل مسن، يميل للامتلاء، تمازحه زينب ، وتطلب منه أن يكنس الطرقة كلها، وتكون هي قد أعدت له الطعام، تضعه أمامه في الطرقة، فيتناوله، ثم يشرب شايه، وكثيرا ما يتخذ قفته وسادة وينام لبعض الوقت فوق بلاط الطرقة.

يشتري حسن البراطيش (الأحذية الرجالي والحريمي التي يجدونها في الزبالة) ويشتري الكتب والمجلات والزجاجات الفارغة، خاصة غالية الثمن، مثل زجاجات الخمر.. يحملها على ظهره، ويذهب إلى حيه في الورديان، يفرشها في مواجهة الترام، يبيع الأشياء القديمة التي يعرف أنها موجودة بكثرة في غربال.

الملاعق والشوك والأقلام والنظارات قليلة، تجمعها زينب بصعوبة، وعندما تتجمع منها كمية معقولة، تستدعي " حرنكش "، وهو شاب أسمر طويل، يضع حقيبة على كتفه وينادي:

– شوك ومعالق قديمة للبيع.

تبذل المرأة جهدا كبيرا لكي تبيع الحرنكش، فهو يبدأ بسعر قليل، لكنها ترفض، وتعيدهم إليها، ثم يضع النقود في يدها، ويرمي الأشياء في حقيبته الصغيرة، ويعود للحارة لينادي من جديد.

يجلس حرنكش على قهوة بخيت الحلواني في الشارع العمومي، من خلالها يراقب الحارة من أولها لآخرها. يشرب شايه، ويعرض الزبالون

عليه ما وجدوه في زبالتهم. أحيانا تكون الملعقة أو الشوكة من النوع الغالي، ويقولون إنهم وجدوا كثيرا شوك وملاعق من الفضة.

ويأتي صموئيل، وهو صعيدي يرتدي الجلباب الأنيق بلا طاقية، يحمل صندوقا مستطيل لونه بني، يمسكه من مقبضه المعدني، وينادي:

- دهب قديم للبيع، فضة قديمة للبيع.

يجلس على القهوة، يحيي زبائنه، فمعظمهم تعاملوا معه. يطلبون له الشاي على حسابهم. يشربه في تلذذ، ثم يأتي البعض، يخرج قطعة صفراء وجدها في الزبالة، فيفتح صموئيل صندوقه، يخرج عينا زجاجية، يضعها أمام عينه اليمنى ويتابع المعدن، ثم يعيده إلى الزبال قائلا:

- فالصو.

فيعيدها الزبال إلى جيبه، يرفض أن يتركها له، فهم يقولون إنه يدعي كثيرا أن المقدم إليه ليس ذهبا أو فضة، وعندما يتركها الزبال له، يبيعها لمن يتعامل معهم على إنه ذهب أو فضة.

وجدت كاملة – يوما – قطعة ذهب، فعرضتها عليه، فقال لها:

- ثمنها قرشان.

أعطاها نصف فرنك، وعندما أخبرت زوجة خالها مسعود بذلك، نهرتها وقالت لها:

- ضحك عليكِ، فهي تستحق أكثر من ذلك.

فأسرعت كاملة إلى الحارة للبحث عنه، لكنه كان قد ترك الحي كله وعاد لمسكنه الذي لا يعرفون مكانه.

قسم زبالة الحاج مدكور، يختلف عن باقي أقسام الزبالة، فهو قريب جدا من قسم المسلة الذي يكثر فيه المكاتب الحكومية، لذا،هو أكبر زبال يبيع الورق في غربال، يجمع عماله أظرف الخطابات، بعد أن عرفوا أهميتها. يخرج أبناؤه طوابع البريد من هذه الأظرف، تعلموا كيف يخلعونها دون أن يقطعوها،يأتي الشباب من أماكن بعيدة لشرائها بمبالغ كبيرة.

يكثر في الحي الذين يربون الحمام فوق أسطح بيوتهم، لا يبيعوه، وإنما يذبحون زغاليله، ويجمعون فضلاته، فيأتي رجل ينادي:

– زبل حمام قديم للبيع.

فينادونه، يعرضون عليه زبل الحمام الذي جمعوه من الحظائر، يحدد الرجل ثمنه دون أن يلمسه، ويدفع ثمنه، ثم يضيفه لزبل الحمام الموجود عنده. يقولون إنه خير سماد للأرض.

حلقة السمك بالأنفوشي

لحلقة السمك بحي الأنفوشي أهمية كبيرة لأهالي الإسكندرية، فهي تعرض جميع أنواع السمك للبيع، وأتذكر جدتي التي كانت تحرص على صلاة الفجر في موعده، ثم نخرج معها، نركب ترام ٤ الذاهبة إلى الأنفوشي، من محطة باب عمر باشا، أقرب محطة ترام إلى بيتنا. ولابد من الذهاب إلى الحلقة مبكرين.

ننزل من الترام أمام مستشفى النقراشي في آخر شارع محمد كريم (التتويج) ونسير بضع خطوات حتى نصل إلى منطقة الأنفوشي، يواجهنا باعة السمك على موائد خشبية خارج الحلقة، يضعون طوايل خشبية، عادة ما يكون المعروض عبارة عن " تشكيلة " من السمك، أنواع مختلفة من الكابوريا والجمبري والبوري وسمك موسى وغيره من الأسماك، والشوارع مليئة بالماء.

هؤلاء يشترون السمك من التجار الكبار لبيعونه خارج الحلقة، فالتجار الصغار الذين يبيعون في الداخل لابد من دفع الأجرة للتجار الكبار أصحاب المحلات هناك. وهؤلاء يبيعون دون دفع شيء.

خارج حلقة السمك لافتة قديمة جدا، متآكل بعض حروفها: محافظة الإسكندرية، وتحتها حي الجمرك. ثم دعاء دخول السوق.

الحلقة تديرها الغرفة التجارية، وهي التي تؤجر المحلات فيها لكبار التجار.

في ظهر حلقة السمك قلعة قايتباي الشهيرة، ومعهد علوم البحار. وفي مواجهتها حي السيالة الشعبي الذي عاش فيه محمود بيرم التونسي، وفي امتدادها مساكن السواحل، ثم مستشفى رأس التين المعروفة هناك بمستشفى الأوقاف، ثم قصر ثقافة الأنفوشي ومركز شباب الأنفوشي.

ويرجع تاريخ حلقة السمك بالأنفوشي إلى عام ١٨٣٤، وقبلها كانت هناك حلقة سمك في ميدان القناصل الذي تحول بعد ذلك إلى ميدان المنشية، لكن هذه الحلقة تلاشت وانتهت.

مبنى الحلقة أثري، مبانيه قديمة ومتآكلة وفي حاجة لترميم وعناية. ويجب أن تزوره لجنة من وزارة الآثار للإهتمام بمبانيه.

والحلقة مقسمة إلى عدة أقسام، تسمى " باكيات "، ويدير كل منها تاجر كبير (معلم). وبعضهم يؤجر محلاته لصغار التجار.

وهناك السيد خطاب وهو مؤسس جمعية محبي فريد الأطرش وعاشق لأغانيه، لديه ماكينة تكسير الثلج، فيخرج عماله بقفف الثلج المكسر، ويضعونه فوق طوايل التجار لكي لا يفسد سمكهم.

يتجمع في كل باكية مندوبو الفنادق والمطاعم الكبيرة وتجار السمك الكبار والصغار، يتابع الكل السمك المرصوص على الطوايل

بعناية وبحرفية، كل نوع في طاولة مستقلة. ويأتي معلم كل باكية فيلتف الجميع حوله، يكونون حلقة حوله. ومن هنا جاءت تسمية " حلقة السمك ".

يبدأ التاجر الكبير المزاد، ويرتفع السعر، إلى أن يرسو على مشتر، فتتحرك بعد انتهاء المزاد " طوايل السمك " الممتدة في نظام، وتنقلها سياراتهم إلى دكاكينهم في أبي قير والمعمورة وغيرهما من أماكن الإسكندرية. وتتبقى طوايل فيها أنواع مختلفة من السمك تسمى " تشكيلة " أبو جلامبو والجمبري والدينيس والبوري.. إلخ

لكن قبل أن تتحرك السيارات بالسمك، يأتي محصل كل تاجر بدفتره، ويطالبهم بثمن السمك الذي اشتروه بالأمس، فالسداد يتم في اليوم التالي.

يؤمن تجار السمك هناك بأن السمك هو رزق من عندالله، ولابد من التزكية الفورية عليه، فتجد أحد التجار، ينادي بائع سمك فقير، ويعطيه كمية من السمك دون أن يطلب، فيجمع هذا التاجر الفقير كميات السمك الصغيرة من عدد من المعلمين، ويقف بها خارج الحلقة ليبيعها كشروة، فهي أنواع مختلفة من السمك. أو أن ينادي على مشتري يراه فقيرا ويغرف بيديه ويعطيه مجموعة من السمك دون شيء. ويتشاءم التجار إذا لم يفعلوا هذا.

كما أن هناك المحاسبين الذين يقومون بالحسابات بين التجار وبعضهم، تراهم يرتدون أفخر الثياب. فالتجار لا يبخلون عليهم. وكل

العاملين مع تجار السمك في الحلقة، يتناولون أجرتهم باليوم، وهي متغيرة، مثل أسعار السمك المتغيرة، حسب كمية السمك الموجودة والمباعة، لكل تاجر كبير، مساعد كبير، يعتبر رئيسا للعمال، ينادي على المحصل والمحاسب والعمال، ويعطي كل منهم أجره اليومي، يضعه في جيبه، ولا يجرؤ أحدهم على الاعتراض، أو عده أمامه، فيشكره ويهرب إلى الخارج للاطمئنان على أجره. فتراهم يقبلون هذه النقود ويضعونها في جيوبهم فرحين.

وهم يشتركون في جمعيات يومية، فيدفع كل منهم خمسين جنيها في اليوم أو أكثر. نوع من الاقتصاد.

وهناك عمال يقومون بإصلاح طوايل الخشب، وهي مصنوعة من خشب الشجر، ويأتون بها من ورش في رشيد.

يقوم العمال بنقل السمك من مكان لمكان قبل أن ترص على الطوايل، وخلالها يقومون بأخذ بعض الأسماك، يخفونها في ملابسهم المعدة لذلك، والمعلمون يعلمون بهذا، ولا يعترضون، بل يباركون هذا، وإلا قل رزق مراكب الصيد في الغد.

بعض التجار يملكون مراكب تخرج في عرض البحر لاصطياد السمك، وهم يعانون الآن من ارتفاع ثمن الوقود، مما يؤثر على سعر السمك.

ويأتي بعض الصيادين الذين يصطادون بالشبكة، ويسمونها الجرافة، يرمون الشبكة في عرض البحر، ثم يشدونها وهم واقفون على

البر، وعندما انتقلت عام ١٩٧٤ إلى شركة الورق الأهلية بالطابية، وكانت الإدارة في قصر حسن نشأت (صاحب الشركة) على البحر في خليج أبي قير، كنا نتابع الصيادين وهم يشدون الجرافة، وننتظر حتى تصل الشبكة إليهم، ولا يجدون سوانا لنشتري منهم، فيبيعون لنا بعض السمك الموجود، لكن بعد أن انتقلت الكلية البحرية إلى هناك، منعوا الصيد في هذه المنطقة.

وأذكر ونحن صغار أن وقفنا لمشاهدة الصيادين وهم يشدون جرافة السمك قريبا من ميدان المساجد، فدعانا كبيرهم في المساعدة في شد الحبال، فأسرعنا فرحين، وعندما وصل السمك إلى البر، أعطى كل منا كمية من "البساريا" (السمك الصغير جدا)، فوضعه البعض في ورق، ووضعه البعض في ملابسه، ودخلنا سينما كونكورديا، جلسنا في البلكون الثاني فيها، وكانت تذكرته أقل سعرا، لكننا رمينا ما معنا من سمك على الجالسين في الصالة، فتذمروا وصرخوا، حتى أضاءت السينما أنوارها، وعرفونا من رائحة ملابسنا، فضربونا ورمونا خارج السينما.

أحيانا تصطاد المراكب اسماك نادرة، قلما تأتي إلى حلقة السمك، فيصطادون سمك القرش، ويضعونه في مقدمة الحلقة، فتتزاحم الناس حوله، لمشاهدتهومعاينة هذا المخلوق العجيب الذي يأكل الناس بشراهة.

ويصطادون الترسة بحجمها الكبير، يذبحونها في الحلقة، ثم يحملونها على عربة كارو بحمار ويطوفون بها حول المنطقة في حي

السيالة وزاوية الأعرج، والشمرلي، ليعلم الناس هناك إن الترسة وصلت وذُبحت، فيأتون بكثرة، فهم ينتظرون مقدمها بفارغ الصبر، فهي لا تأتي إلا نادرا. معظم المتعاملين معهم من النساء النحيفات، وأتذكر قريبتي التي كانت تحلم هي وإبنتها بالسمنة، وتمنى نفسها بأنها وابنتها ستتخنان يوما، وفجأة وجدناها هي وابنتها الشابة وقد تخنتا. وتردد النسوة في عائلتنا بأنهما ذهبتا لحلقة السمك في الصباح الباكر، وشربتا دم الترسة.

تتزاحم النسوة حول البائعين، لشراء دم الترسة، ويشربونه دافئا في التو واللحظة، ثم يشترى البعض لحم الترسة، ويرددون بأنه لذيذ الطعم ومفيد للجسم.

وتأتي نسوة للسؤال على دهون الدولفين، فقلما تأتي إلى الحلقة، وعندما يصل الدولفين، تسرع نسوة متخصصات بأخذه ووضع جلوده في آنية ويسيحونها على النار، ويباع لمرضى الروماتزم، فهو مفيد جدا لهم. أما الحوت فالزيوت المستخرجه من كبده تستخدم في حالات الضعف والهزال (مقويات).

وهناك أنواع أخرى من الأسماك تستخدم في علاج الأمراض مثل سمك الرعاش. وكتب التاريخ تذكر إن ملك مصر (الكامل) أصيب بحالة صداع كادت تفتك برأسه، وحارت معه كل العلاجات والوصفات إلى أن جاءه ابن البيطار الطبيب المشهور وكان آتيا من مالقا في بلاد الأندلس. فسأل عن سمكة تعامل معها من قبل في بلده، ووصفها لهم قال: "هي عريضة وتخدر ماسكها"، فقالوا: اسمها سمك الرعاد، وجاءوا

بها إليه، فوضعها على رأس الملك الكامل، فأحس برعدة في رأسه وزال عنه الألم.

هذه السمكة تسمى الآن بالرعاش، وتستخدم في علاج الكثير من الأمراض، كما فعل ابن البيطار.

وذكر البحر يشبه ديدان سمينة ملساء، يتراوح طولها بين ست وثماني بوصات، ذات لون يميل للسمرة. وإذا ما ضغطت عليه برقة، تضخمت وتصلبت، ثم ما تلبث أن يشتد عودها فيشبه انتباج، ينتهي بأن تقذف قطرة من الماء من إحدى نهايتها، وبعد ذلك مباشرة تعود إلى طراوتها الأولى.

لهذا، اطلق العرب عليها اسم " ذكر البحر " وذلك جعل الصينيين يعتقدون إن لذكر البحر خصائص فريدة من شأنها أن تساعد على إذكاء الغريزة الجنسية.

وهناك نوع آخر من السمك يخافه الصيادون اسمه السكوربوج، فله زعانف حادة، قد تدمي أياديهم لو أمسكوها، وقد تقطع شباكهم. وأحيانا يقومون بكسر زعانفها، ويأتي الكثير للسؤال عنها فهي تشفي في حالات التبول اللاإرادي.

وسمك اللوت يستخدم في علاج مرض السكر.

وينصح المسنون من الصيادين السيدات اللائي يرضعن بكثرة أكل سمك البوري، لأنه يساعد في الرضاعة، وتلجأ السيدات الفقيرات إلى نوع من السمك يفعل ما يفعله سمك البوري في حالة الرضاعة، وسعره

أرخص بكثير، سمكة اسمه بقرة البحر، فوجهها قريب الشبه بالبقرة، عيبها أن أشواكها حادة، وقد تدمي يد من يحاول إمساكها.

وقد شاهدت في حلقة السمك، امرأة مسنة، تقف بجوار صياد، وتأخذ قطعة من شبكة صيده، وواضح أنه قد وعدها بذلك من قبل، فأخذت قطعة الشبكة الصغيرة، ووضعتها في حقيبة يدها سعيدة، وسألتها عن ذلك، قالت:

- سأعطيها لزوج ابنتي ليضعها في جيبه، ليزيد رزقه.

الأطعمة في حينا الشعبي

يكثر الزبالون في حي غربال، وهم الأغنى، فعملهم يدر عليهم مبالغ كثيرة. ومازال صديقي يذكرني للآن بصديقنا – ابن الزبال – الذي كان مصروفه شلنا في اليوم، بينما أنا والآخر نأخذ قرش صاغ واحد، رغم أننا أكبر منه سنا.

يبدأ عمل الزبالون بعد صلاة الفجر مباشرة، وكنا نسمع أقاربهم وهم ينادون عليهم وقت الفجر بإلحاح، ويدفعون للشيخ أحمد – إمام المسجد الصغير في حارتنا – لكي يوقظهم للذهاب إلى عملهم مبكرين.

تقف في تقاطع شارعي الأمير أحمد رفعت ومحمد العباسي المهدي، امرأة جميلة ونحيفة تبيع الكسكسي، فكنت اشتري منها، وأتابعها باهتمام، أتذكر الممثلة مريم فخر الدين في فيلم " الطاهرة "، فقد كانت تبيع الكسكسي والبليلة مثلها، وكانت طيبة وقريبة الشبه منها.

تقف أمام دكان دقيق مغلق، وتبيع للزبالين، الذين يقفون أمامها بعرباتهم وحميرهم، فتضع الكسكسي والبليلة والسكر فوقه، وسطل اللبن بجانبها تصب منه فوق الطبق. وينتهي عملها قبل أن يأتي صاحب دكان الدقيق ويفتحه، فتعود إلى بيتها، لتباشر عملها. لكن – للأسف – أحس الزبالون الذين يشترون منها بمغص وقيء، فاحتجزوهم في

المستشفى الأميري لساعات، وتم القبض عليها، وحققوا معها، فلم تعد ثانية إلى الحي، سكنت حي " غبريال" ورأيتها – هناك – وهي تبيع ما كانت تبيعه في غربال.

في بيوت الزبالين صفائح السمن الصعيدي التي لا تنتهي من البيت. وفي الأعياد المسيحية والإسلامية، يأتي عمالهم بزنابيل ممتلئة بالحلويات، خاصة لو كان قسم الزبالة في حي راقي مثل الإبراهيمية وسبورتنج وكليوباترا. فكل شقة تحرص على إعطاء الزبال كميات من الكعك أو الجاتوه أو البيض الملون في شم النسيم. ومن كثرته يوزعون بعضه على جيرانهم الذين لا يحصلون على ذلك.

عملت في فترة الدراسة في شركة المجمعات الاستهلاكية خلال الصيف، فكنت أذهب مع بعض شباب العاملين في الشركة، لشراء الإفطار من محلات شارع محرم بك، ففوجئت بمن يطلب " اللانشون" ودهشت أكثر من رؤيته والبقال يقطعه إما بالماكينة أو بالسكين، ففي حينا لم نكن نعرفه، وعندما كنت أراه لدى الباعة في المحلات البعيدة، كنت أظنه مصنع من لحم الخنزير.

كنا نشتري لوازمنا من لدى بقال قريب جدا من بيت جدتي، أشتري منه بقرش صاغ بسطرمة، فأزيل الثوم العالق بها، وأذهب إلى الفرن، أضع البسطرمة في نصف الرغيف، وأثني الجزء الباقي، وأدفع خمسة مليمات ثمن الرغيف. أو اشتري بخمسة مليمات عجوة، وأزيل النوى منها، وأضعه في رغيف أيضا مع سمن من بيت جدتي.

يكثر في حينا باعة البطيخ الصغير، فتجلس امرأة بدينة بجوار بيتها، وتضع البطيخ بجوار نافذة حجرتها، وتبيع الواحدة بخمسة مليمات، والكبيرة بقرش صاغ، وقلما تجد فيها بطيخة حمراء. ويبيعون العنب الفرط. والجوافة وبلح عيشة. ومن المشهور هناك إن من العيب أن يذهب أحد لزيارة مريض ومعه كيس فيه جوافة أو بلح عيشة. فهما أقل سعرا من الفاكهة الأخرى.

وهناك من يفتح الرغيف ويمده لبائع العنب الفرط لكي يملأه له، أو يفتحه أمام بائع المكرونة الذي يقف على ناصية الحارة، ليضع فيه المكرونة، وتدهش كيف يأكلون الخبر المحشي بالعنب أو بالمكرونة. وبمناسبة ذكر المكرونة، فالكثير من سكان الحي لا يحبونها ولا يأكلونها، وقد لاحظت أن الصعايدة الذين جاءوا من الصعيد كبارا، لا يميلون لأكلها ولا أكل اللحوم المصنعة، فلا يفضلون البسطرمة ولا اللانشون.

ويكثر باعة مخلفات معامل الحلوانية الكبار، مثل بسترودس وديليس وإيليت، فيأتي الرجل بعربته التي يجرها الحمار، ويفرش بضاعته، في أول الحارة. مناديل ورق بها بقايا الكريم والمربى، أو ورق مقوى أملس الوجه، يضع البائع فوقه بعض الأشياء الصفراء أو المربى الحمراء بملعقته. ويبيع الفرافيت المتبقية من أكل الزبائن، عربة " معرمة " بهذه الفرافيت. ويتزاحم الرجال والنساء والأطفال على شراء هذه الأشياء.

كان الأطفال يرتبطون بحاراته، فقلما يبرحونها، لكن عندما يصلوا لسن الشباب يطمحون للخروج منه، فيصعدون لمنطقة عليا، يصلون إليها عبر جبل ترابي (صنعت البلدية بعد ذلك سلالم بازلتية، وثلاث حدايد لكي تمنع السيارات من الوقوع إلى أسفل) وكان سكان المنطقة العليا يطلقون على سكان المنطقة السفلى، اسم (العزبة) هناك فرق كبير بين الحيين، رغم قربهما والتصاقهما ببعض، فحواري المنطقة السفلى ترابية، بينما شوارع المكان العلوي مسفلتة، وبيوتها عالية، وقلما تجد بيتا هناك بلا كهرباء، بينما ٩٩% من بيوت المنقطة السفلى بلا كهرباء، وبعضها بلا ماء.

أطعمة المنطقة العليا الأكثر رقيا

كنت أقضي وقتي بين بيت جدتي (لأمي) في المنقطة السفلى، وفي بيت والدي بالمنطقة العليا، وقد أنجبت ساكنة في بيتنا طفلة شديدة النحافة، فكانت ترسلني كل يوم إلى" لبان" اسمه الشيشيني، يمتلك دكانا في شارع إيزيس القريب من بيتنا.

الرجل يجلس بمعطفه الأصفر وطربوشه، أمام مائدة ذات طبقة رخامية، مثل الكثير من موائد الدكان المخصصة للذين يأتون لتناول الإفطار أو العشاء عليها، وعامل يقف خلف النصبة يغلي اللبن ويبيعه هو ومنتجاته من زبد وكريمة وجبن، أقول للرجل: بقرش لبن (والقرش في لغتنا – وقتها – يعني نصف القرش، أي خمسة مليمات، بينما نقول على القرش صاغ) فيقول الشيشيني غاضبا: فيه لبن بقرش؟! ثم ينظر ناحية عامله قائلا في ضيق: أديله بقرش لبن.

ويتكرر هذا كل يوم.

الغريب أن زوجة أبي التي جاء بها أبي من الصعيد بعد موت أمي المبكر، وباقي سكان بيتنا، يطلقون على أي " لبان" اسم الشيشيني، ومازالوا يقولون ذلك.

بعد مسافة ليست بالبعيدة من دكان الشيشيني، يقف علي الزعبلاوي بعربته، واضعا ساعة حائط على الجدار المجاور لمحل تصليح الساعات، وراديو كبير، وصورا كثيرة له.

يبيع الزعبلاوي المكرونة، نوع واحد لا يغيره، وسط بين المكرونة الصغيرة والمكرونة الكبيرة المسماه: " قلمة "، ومازال المشترين في منطقة كبيرة جدا من الإسكندرية، يقولون للبقال: "نريد كيلو مكرونة الزعبلاوي"، ويعرف البائع ويزنها لهم.

يقف الزعبلاوي بعربته ليل نهار، ويبيع هو وعماله طوال الوقت.

أفتتح الزعبلاوي محلات كثيرة حول المنطقة، وعمل عنده عمال كثيرين، وأصبح من معالم المنطقة، فمازلتُ للآن، عندما أريد ركوب تاكسي، أقول للسائق: "عند الزعبلاوي". ويعرف السائق ويصل بي إليه. وحكى لي مساعد مخرج – صديقي – عمل في أحد أفلام الممثل أحمد آدم، إنه سمعه يقول للعاملين معه في الفيلم وقت الراحة:

– إللي ما أكلش مكرونة من عند الزعبلاوي، ما يبقاش إسكندراني.

كان عمال الزعبلاوي يعصرون أفضل أنواع الطماطم بأيديهم، فتتبقى كميات كبيرة منها، يضعها العمال في أواني كبيرة، فيأتي الجيران

ويطلبون أجزاء منها، فيعطونها لهم، فيقوم الناس بعصرها في بيوتهم وصناعة طعامهم منها، لكنه بعد ذلك، اشترى معصرة كهربائية حرمت الناس من هذه البواقي، فالمعاصر الكهربائية لا تترك شيئا للناس.

في مواجهة دكان الزعبلاوي يقع دكان فلفل، صانع السقط (الفشة والمنبار والطحال والكوارع ولحم الرأس .. إلخ)

الدكان كبير فيه موائد كثيرة للذين يفضلون تناول الطعام داخله، بينما يقف فلفل في الخارج أمام طاسة كبيرة، يقلي الفشة ولحم الرأس، وقطع المنبار الصغيرة وباقي الأشياء، وعماله ينقلونها للزبائن، وكنت وأنا صغير أقف أمامه لوقت طويل حتى يبيع لي في قرطاس ورق بعض هذه الأشياء.

يغلي فلفل كميات كبيرة جدا من بضاعته في قزان كبير جدا، فيتبقى عنده كمية هائلة من المرق، كان السكان حوله، يذهبون إليه حاملين حللهم وأوانيهم، ويطلبون منه بعضها، فيعطيهم دون مقابل، فيطبخون عليها الملوخية أو البامية بالطريقة الصعيدي، والمسماة " ويكة ". وكنت أعود متأخرا، فأجد عربات كثيرة جدا من باعة الخس والترمس .. إلخ، واقفة بعد دكانه. فأصحابها يجلسون على المقاعد داخل الدكان، وبعضهم يقف منتظرا خلو مقعد ليجلس فيه، فيقدم عمال المحل لكل منهم" سلطانية " فيها مرق مغلي ورغيفين ناشفين يفتهم، ويأكل، ثم يدفع قرش صاغ واحد، ثمن الخبز.

لكن الأيام تغيرت، وورثة فلفل، بلغني أنهم يبيعون المرق الآن للجيران ليطبخوا عليها.

الأضرحة والنذور

واحدة من أكبر علماء الطب الفرعوني بجامعة مانشتسر الإنجليزية، توصلت إلى أن الكهنة كانوا يقدمون للآلهة أفخر الطعام الغارق في الدهون: البط المحمر والخبز بالدسم والخضروات؛ يضعونها أمام تماثيل الآلهة إرضاء لها، وهي الطقوس اليومية التي يمارسونها ثلاث مرات يوميا.

ثم يعود الكهنة بهذا الطعام إلى بيوتهم. هذا ما جاء في مقالة من مواقف الأستاذ أنيس منصور في جريدة الأهرام؛ وهذا ما يحدث – للآن – في الأضرحة الكثيرة على مستوى مصر كلها، فقد كانت جدتي لا يعيش لها أطفال، مثلها مثل الكثير من نساء حينا، يموت أطفالهن في صغرهن، فجدتي ينادونها بأم الشحات، وأنا لم أر الشحات هذا، فقد مات مثل الكثير من أخوته، لكن أمي عاشت حتى تزوجت وانجبت، ثم جاءت جدتي بولد يكبرني بعام واحد، وكان يجلس بجواري على تختة المدرسة، دعته جدتي جابر، على اسم سيدي جابر، ونذرت أن تهدي مسجد سيدي جابر "جدي" كبير، وأن تدعو نساء العائلة والجيران إلى الطعام حول المسجد، فذهبنا معها راكبين قطار أبو قير، ودخلت

المسجد والرجال يشدون الجدي، ثم تركته للعاملين فيه، واتفقت مع مكتب فراشة في المنطقة؛ لعمل دروة من قماش الشوادر بجوار المسجد وقد أخرجت أوانيها الكثيرة، وساعدتها الكثير من السيدات من الأقارب والجارات؛ في تقديم السمك المقلي والمشوي والباذنجان والفلفل والبطاطس المقلية، والأرز الأصفر والسلطة الخضراء التي تقدم – عادة – مع السمك.

جلست النسوة خلف المسجد، وأمامه، (ربما كن يجلسن مكان قصر التذوق القائم الآن) ثم أشعلت النسوة البوابير وصنعن الشاي، وإذ بعربة كارو مربوط بها الجدي، تسير في شارع بورسعيد، ذاهبة إلى بيت من بيوت العاملين في المسجد.

ويذكر الدكتور حلمي أحمد شلبي في كتابه (صغار ملاك الأراضي الزراعية في مديرية المنوفية – ١٨٩١ – ١٩١٣) إن أحد القرويين في إحدي المديريات المجاورة للسيد البدوي قد أنجب بنتين ولكنهما توفيتا، فنذر للسيد البدوي إن عاشت الثالثة كان له نصفها، فعاشت وطال عمرها، ولما حان زواجها وأخذ مهرها أثنى عشر جنيهاً؛ أودع نصفه في صندوق النذور بضريح السيد البدوي وجهزها بالنصف الآخر.

ودعتني – وأنا صغير – امرأة تسكن بيتنا، لزيارة مسجد سيدي أبو العباس المرسي، في مولده. عدد كبير من نساء البيت أمسكن أيادي ابنائهن وبناتهن، وركبنا ترام (٤) من محطة مصر التي كانت تمر أمام ميدان المساجد، حيث أبو العباس المرسي وسيدي تمراز وياقوت العرش

والبوصيري وباقي المشايخ المشهورة هناك، ثم تصل إلى الأنفوشي – الشاطئ الفقير الذي يأتي إليه فقراء الإسكندرية من الأحياء الفقيرة حول محطة مصر – (الباب الجديد، وراغب باشا، وجامع سلطان وغربال إلخ)؛ لكن التطوير الذي أحدثه المحجوب – المحافظ السابق للإسكندرية –منع الترام من المرور في المنشية، فقطع الصلة بين محطة مصر (الميدان المشهور) وحي بحري والأنفوشي ورأس التين.

جلسنا في حديقة أمام مستشفى الملكة نازلى المتخصصة في علاج الأطفال، وتابعنا المراجيح، وباعة الحلوي والحمص، ورجل خطرت في مخة فكرة عجيبة أن يقيم تليفريك في هذا الميدان، فأقام عمودا عاليا جدا، وسلالم تصل إلى أعلاه، وسلك قوي جدا ممدود من أعلى العمود حتى الأرض، ورجل يقف أعلى العمود، لربط الطفل بعناية في عجلة معقودة في السلك، فيهبط الطفل من هذا العلو الشاهق حتى الأرض، ورجل آخر في أسفل، يتقبل الطفل النازل من فوق العمود، ليفك عنه رباطه.

أخرجت كل امرأة – من نساء البيت – منديلها وأعطت طفلها خمسة مليمات– أجرة ركوب التليفريك – لم أكن امتلك مليما واحدا، فقد أنفقت مصر وفي الذي يعطيه لي والدي في الصباح ، وزوجة أبي لا يمكن أن تعطيني شيئا آخر مهما قلت أو فعلت معها.

تابعت ما يحدث في أسى، لكن امرأة من سكان البيت اسمها " فهيمة بنت قبيصي "، نادتني، وأخرجت منديلها من صدرها، فكته، وأعطتني الخمسة مليمات، قائلة:

– روح أركب مثل باقي الأطفال.

موقـف لا أنـساه. ولا أنـسى هـذه المـرأة الطيبـة، يومهـا دخلـت مسجد أبي العباس المرسي مع نسوة البيت والأطفال، وفعلت مثلهم، مسحت على غطاء الضريح. جلستْ النسوة حول الضريح، وخرجتُ مع الأطفال نلعب فوق الحصر في باحة المسجد، وعندما أردت أن أعود للضريح ثانية؛ أخطأت ودخلت حجرة مجاورة، كانت خالية، ومجموعة من المشايخ – بزيهم المميز – يجلسون في الخارج ينظرون إلى بابها يتابعونها في اهتمام بالغ، ربما كانوا في انتظار باقي أعضاء اللجنة التي ستجرد المودع في صندوق النذور.

لا أدري كيف لـم يروني وأنا داخل، لقد شاهدت مجموعة هائلة من المال، موضوعة فوق مائدة كبيرة جدا، ومجموعة هائلة من الذهب والفضة في الناحية الأخرى. خرجت مفزوعا، وهب المشايخ واقفين في غضب:

– ما الذي أدخلك هذه الحجرة؟!

قلت في خوف شديد:

– ظننتها الضريح.

فسخروا مني غير مصدقين، اعتقدوا أنني قصدت دخولها لأنهل من هذا الكنز الذي يشبه كنز علي بابا.

لماذا لا نُنشئ المجلس القومي للرجل؟

لي صديق يمتلك محلاً في محطة الرمل في ممر بين عمارتين كبيرتين، كله محلات وورش، يحصل أصحاب هذه المحلات على الإجازة الأسبوعية يوم الأحد [1] ولأن صديقي هذا لا يستطيع البقاء في البيت مع زوجته طوال اليوم؛ وإلا تشاجر معها وحدثت بينهما مشاكل كثيرة جدا، فكان يأتي إلى بيتي ويقضي الوقت معي، فزوجتي تذهب في هذا اليوم إلى بيت والدها الذي أعتاد أن يجمع ابناءه وبناته في يوم إجازته الأحد.

يقف صديقي معي في المطبخ، فنعد طعام الغداء معا، ونجلس أمام التليفزيون، ونعد المشروبات.

هذه الأوقات هي أسعد أوقات حياتي. فأتنقل في شقتي بحرية، وافتح من النوافذ ما أشاء. وعرف أصحابي أنني أقضي يوم الأحد وحدي في البيت فكانوا يفضلون مقابلتي في هذا اليوم. نجتمع ليحكي كل منا ما يعانيه من زوجته. فالبيت يخلو من صنف الحريم، فنتحدث بصوت مرتفع، ونقول ما نشاء، فأحدنا تهدده زوجته بأنها ستخلعه، لكنها تنتظر

[1] أسر كثيرة في الإسكندرية؛ مازالت تحتفل بيوم الأحد، وذلك لأن الكثير من الأوربيين كانوا يعيشون في الإسكندرية، وكانت إجازتهم في يوم الأحد، والآلاف من سكان الإسكندرية كانوا يعملون عندهم ومعهم.

أن تتزوج ابنتهما الوحيدة، وآخر تطالبه زوجته بالنقود الكثيرة، ولا يعرف أين يذهب راتبها، ويشك في أنها تخفيه عنه لدى أسرتها.

ندهش مما يحدث في هذه الأيام من تصاعد دور المرأة في المجتمع، فقد قال السيناريست مصطفى محرم إنه بعد النجاح الكبير الذي حققه مسلسل "عائلة الحاج متولي"، والذي عُرض خلال موسم رمضان٢٠٠١، بدأ في التحضير للجزء الثاني من المسلسل، ليتم عرضه في موسم رمضان ٢٠٠٢، ولكنه فوجئ بصفوت الشريف يمنعه من استكمال هذا ويهدده بعدم عرضه على الفضائيات إذا نفذ هذه الفكرة، لأن المسلسل لم ينل رضا وإعجاب سيدة مصر الأولى سوزان مبارك آنذاك، وهو ما جعل محرم يتغاضى عن فكرة عمل جزء ثانٍ للمسلسل إجباريا.

ويحكون أن المجلس القومي للمرأة قد أرسل مذكرة احتجاج إلى رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون، لأن التليفزيون عرض مسلسل الحاج متولي الذي يدعو إلى تعدد الزوجات؛ وجعل المهمة سهلة وجميلة أمام الرجال، مما شجع الكثيرين إلى الزواج مرات أخرى، وكان سببا في أن هدد الكثير من الرجال؛ زوجاتهم بأنهم سيتزوجون ثانية وربما ثالثة ورابعة مثلما فعل الحاج متولي.

ويقولون أيضا: "إن التليفزيون قد أجاب بأنه قد أدرك خطورة ما حدث، وسوف يصحح المسار الخاطئ بعرض مسلسل تليفزيوني كبير عن قاسم أمين منقذ المرأة ومحررها، وهم يبحثون الآن عن أفضل الكُتاب لكتابة هذا المسلسل، وتم الاتفاق على محمد السيد عيد".

إنني أكتب هذه الكلمات وأنا خائف من سلطة المجلس القومي للمرأة التي تتزايد وقد تصل إلى حد سن القوانين لمعاقبة كل من تسول له نفسه التعرض للمرأة، فالذي يدعو إلى عودة المرأة إلى البيت يعاقب بكذا سنة سجن، أو الذي يدعو إلى تعدد الزوجات يعاقب بكذا سنة سجن، كما يحدث لمن يرفض الاعتراف بمحارق النازي لليهود.

أو أن تعرض في الشوارع أرقام التليفونات الساخنة التي تلجأ إليها الزوجة التي تحس أن زوجها قد أساء إليها أو سبها أو حمَّلها فوق طاقتها، حتى لو كان هذا في أداء الواجب الزوجي المعتاد.

وقد شكا أحد المتعاملين مع الإذاعة بالقاهرة بأن معظم الإذاعات تسيطر عليها النساء، ولاحظت ولاحظ معي المتعاملون مع أجهزة الثقافة بالإسكندرية بأن مديري القصور ومدير المديرية ورئيس القطاع كلهم من النساء، وظل هذا الوضع سائدا لسنوات كثيرة جدا.فكتبتُ:

هناك مسلمات لا نقاش فيها؛ فوزير الصحة ومديرو المستشفيات لابد أن يكونوا من الأطباء، ووزير العدل لابد أن يكون قانونيا، ومديرو قصور الثقافة والمديرية ورؤساء الثقافة في الإسكندرية لابد أن يكونوا من النساء. وقد أدرك الأستاذ " فلان الفلاني " الموظف بالثقافة وقتذاك؛ أنه لو ظل في الإسكندرية إلى أن يحال إلى المعاش؛ لن يحصل على هذا المنصب وستحصل عليه زميلة من زميلاته؛ ولو كانت أقل منه في الخبرة ومدة العمل. فهو يرى ما تفعله السيدات لكي يحصلن على هذا المنصب، فواحدة جمعت النقود من موظفي الثقافة الغلابة لكي تشتري

سلسلة مفاتيح ذهبية للسيد رئيس الهيئة – الموجود وقتذاك – وأخرى – أهدته فستان زفاف ابنته، كما أن المبلغ المخصص للثقافة من محافظة الإسكندرية تنفقنه على سيادته ومن يحضر معه. حتى اضطر المحافظ الموجود في ذلك الوقت أن يلغي هذا الدعم، ولم تسترده الثقافة ثانية إلا في وقت اللواء عبد السلام المحجوب.

بحث فلان الفلاني عن طريقة تجعله يحوز بهذا المنصب الثقافي الرئاسي المهم؛ فتقدم لشغل وظيفة مدير الجمعيات الثقافية التابع للوزارة في القاهرة؛ ليكون قريبا من صنّاع القرار؛ فيختارونه إذا خلا منصب رئاسي في الإسكندرية، وبالفعل نال الأستاذ " فلان الفلاني " المنصب وأصبح رئيسا للقطاع، وللأسف لم يبق في منصبه هذا – رغم تحمله للمشاق، وبعده عن أسرته – سوى شهورا قليلة. وكان المفروض أن يقدروا تضحياته ويجددوا له ولو سنة واحدة .

والنساء في بلادنا يحصلن على مزايا لا يستطيع الرجل أن يحصل عليها، حتى قبل إنشاء المجلس القومي للمرأة. فزميلاتنا في العمل يحصلن على مبالغ أكثر من الرجال الذين يسوونهن في الوظيفة والمدة ونوع العمل، فالتكوين الفسيولوجي للمرأة يجعلها مميزة، فقلما تجد مديرا مصريا لا ينحاز للمرأة التي تعمل في إدارته، فحتى إن كان رجلا مستقيما ولا يقرب الزنا، فيكفيه أن يرى وجهها الجميل ويسمع صوتها العذب، ويشم رائحة عطرها الذي سيعبق حجرته إلى أن يعود إلى بيته.

وفي مجال الأدب، يفضلون نشر قصص أو أشعار أو مقالات النساء. وقد كتب زميلنا " محمد عباس علي " في شهادته في مؤتمر

إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي، فقال يحكي عن نشر أول قصة له في مجلة إبداع، فقد أرسل إليهم دون جدوى، فهمس أحدهم في أذنه:

- إنهم يهتمون بالجنس اللطيف أكثر.

فما كان منه إلا أن استعار اسم ابنة عمه (حنان فتح الله) وأرسل قصته باسمها، وفوجئ بنشر القصة في عدد يناير ١٩٨٧[٢].

فرؤساء التحرير يرون أن نشر قصص أو أشعار أو مقالات النساء يطري المجلة، ويجلب البهجة لقرائها، ويجعل الجو معطرا ومنعشا. وأعرف واحدا كان في حاجة ملحة إلى المال، فاشترك في مسابقة في بلد عربي غني، تشترط أن يتقدم إليها بقصة واحدة، فأرسل قصتين من تأليفه واحدة باسمه والأخرى باسم زوجته، وفازت المرسلة باسم زوجته.

الغريب في الأمر أن تخصص اللجنة المشرفة على القراءة للجميع (مكتبة الأسرة) سلسلة لأدب المرأة. والكتاب الرجال، خاصة الذين يعيشون بعيدا عن القاهرة، والذين لا يسأل عنهم أحد؛ ماذا يفعلون؟!

لذا أدعو مسئول كبير له شأن يتولى تكوين المجلس القومي للرجل، فحتما سيتمكن هذا المجلس من رد حقوقنا السليبة، وستكون لنا سلسلة خاصة بإبداع الرجل.

---

[٢] كتاب أبحاث المؤتمر الأدبي العاشر لإقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي ص ٣٣٩

مباراة العشق والزواج

بين المسلمين والمسيحيين في مصر

بنى الحاج مسعود بيته بمدخلين، أحدهما للوصول إلى سكنه، والآخر للوصول إلى مسجد كانت الحارة في أشد الحاجة إليه. فالمنطقة كلها ليس بها مسجد واحد، مما اضطر بائع أكواب ولمبات جاز يسكن الشارع العمومي، أن يفرش "حصرا " أمام دكانه وقت كل صلاة، ويقيم الصلاة هناك.

وأقام الحاج مسعود درجات رخامية أمام المدخلين. كنا نجلس فوقها، نتحدث عن أشياء كثيرة في الحي. ونقوم عنها عندما يخرج الشيخ أحمد من المسجد، ويقف فوق أعلى الدرجات ليؤذن للصلاة. معظم سكان الحارة من بلدة واحدة، مركز يتبعه الكثير من القرى والنجوع. فيتنافس الجالسون ويتباهى كل منهم بنجعه وقريته. ومن الأشياء التي تدعو للفخار عندهم إن قريتهم أو نجعهم ليس فيه كنيسة. وكأن وجود كنيسة في نجع أو قرية عار على مسلميها. وأذكر زميلي في العمل الذي كان يأتي كل يوم من مدينته أدكو لشركتنا القريبة. فيقول متباهيا:

– مدينتنا ليس بها سينما ولا كنيسة.

هذه المفاهيم لا صلة لها بالدين، وإنما التعصب هو الدافع لها. فقد كانت زوجة أبي – التي تربت في الصعيد وجاءت منه كبيرة لتتزوج – تسخر من أي ساكن ليس صعيديا. فتقول لساكن من وجه بحري:

– الراجل منكم، ينام في البيت، ويرسل زوجته لتشتري لوازمه.

وهذا ما كان يحدث لسكان الحارة الذين جاءوا من مدن وقرى وجه بحري، فالأغلبية تفرض سلطانها في أي مكان.

وقد وصل عزيز المسيحي – زميلنا في إدارة المراجعة – إلى درجة مدير، كان مختصا بمراجعة الأجور والتأمينات. يصعد موظفو الأجور أو التأمينات بكشوفهم الكبيرة، فتتم مراجعة الأرقام هناك.

وتوسط عزيز ليسري وهو شاب مسيحي مثله، فعمل تحت إدارته. كان يسري هذا طويلا ووسيما، وإدارة الأجور والتأمينات ليس بها من صنف النساء سوى امرأتين: هدى، وهي تميل للإمتلاء، بيضاء وفي وجهها ملاحة ظاهرة وغير محجبة. ونادية – زميلتها – محجبة، وسمراء وأقل منها جمالا. تصعدان إلى حجرة المراجعة بأوراقهما، ويجلسان في انتظار الانتهاء من المراجعة.

وأحس الجميع بأن هناك علاقة تنمو وتزدهر بين هدى والولد يسري. تداعبه، وتمد يدها لتلمس يده وهي تقدم الأوراق إليه. وتلتصق به وهو يجمع الكشوف.

أحس الكثير بهذه العلاقة التي وصلت لمقابلات خارج الشركة.

والد يسري عامل بالمصنع، يجتمع مع زملائه المسيحيين في قهوة بعيدة عن مقر الشركة، تقع في حي يسكنه الكثير من المسيحيين. فيدور الحديث في الجلسة حول هذه المرأة المسلمة التي أحبت شابا مسيحيا أصغر منها بكثير. وينشرون الخبر في الشركة كلها، ولكن بعد التعديل، فقد استبدلوا هدى بنادية المحجبة ليكون التأثير أقوى. وجاء العمال – زملاء والد يسري – لمشاهدة السيدة المسلمة التي تحب الشاب المسيحي. شاهدتهم نادية وهم يشيرون إليها، وهي لا تعرف لماذا. وغضب الكثير من مسلمي الشركة، خاصة المتشددين. واعتبروا أن ما فعلته المرأة المسلمة فيه إهانة لكافة مسلمي مصر. وجاء أحدهم، وهو رئيس جمعية تابعة لمسجد قريب من الشركة، يقوم بالإشراف على رحلات الحج والعمرة السنوية، قابل نادية، وحدثها فيما يدعيه المسيحيون عنها. فبكت، وأغمى عليها من الصدمة. ووصل الأمر للتهديد بالنيل من الولد يسري وأبيه وكافة المسيحيين في الشركة. فخاف عزيز – الذين يسكن بيتا قريبا من بيت يسري – فزاره في بيته، ونصحه بألا يأتي للعمل ثانية. وإلا حدثت مواجهة بين المسلمين والمسيحيين. فقال يسري لعزيز في استخاف:

– كل ما فعلته من أجلكم أنتم.

يقصد إن علاقته بهذه المرأة المسلمة رفعت من شأن المسيحيين في الشركة، وفي المنطقة الممتلئة بالأقباط. وكأن المسيحيين أصابوا هدفا في مرمى المسلمين.

وبالفعل لم يأت يسري للشركة ثانية خوفا من المسلمين. وهدى خافت من الحضور أيضا، ولم أرها ثانية.

هذا تلخيص للمباراة التي تحدث بين المسلمين والمسيحيين في مسألة العشق والزواج، فلو وجد المسلمون، مسلمة أحبت مسيحيا، أحسوا بالعار والأسى، وحكى لي المرحوم صبري أبو علم عن زميله المسيحي الشاويش في المركب، عندما هربت ابنته من البيت، فاتصل به صديق مسيحي وأخبره إنها موجودة في حي سبورتنج، فجندوا امرأة مسيحية للبحث عنها في هذا الحي، حملت صورتها معها، ودخلت كل البيوت والشقق، بحجة البحث عن عمل، حتى رأتها وعرفتها، فذهب الأب مع زوجته وابنه. فأخذوا الفتاة عنوة، لكن مباحث أمن الدولة علمت بما يحدث، وأخذت الجميع لمقرها، واتضح أن الفتاة أحبت أمين شرطة مسلم وتزوجته، فأخذوا تعهد بألا يتعرض أحد لها.

وأذكر زميلي في العمل عندما جاء بابنه الصبي، وزميلنا وهيب المسيحي جاء بابنته وهي في مثل عمر الصبي تقريبا، فجلسا على الكنبة في آخر الأتوبيس وتحدثا معا في براءة وطهر، فقال زميلنا المسلم ضاحكا:

– إوعى على بنتك يا وهيب، بعدين جده عملها قبل كده.

فزميلنا أمه كانت مسيحية، وعندما أعلنوا عن موت خاله، وذهبنا لحضور الجنازة، فوجئنا بعربة نقل موتى المسيحيين التي تجرها الخيول الكثيرة.

ككل الأزمات تبدأ ملتهبة ومشتعلة، وبمرور الوقت تهدأ النار، وتعود الأمور لنصابها، كان المخرج الكبير يوسف شاهين يقول، ما معناه، إن أولاد أخته مسلمين، وأولاد أخيه مسيحيين.

هذه المباراة بين المسلمين والمسيحيين، كانت الدافع للاهتمام بالسيدات المسيحيات اللائي أسلمن، وظهور رجال مسلمين وقد وهبوا حياتهم من أجلهن، ومازلت أذكر الرجل الذي يرتدي جلبابا أبيض ويلف وجهه بغطاء قماشي مزكرش، كان قريب الشبه بباعة التين الشوكي في ميدان محطة مصر، وهو يذكر اسماء نساء مدعيا بأنهن أسلمن، لكن الكنيسة اختطفتهن، ويقول: أختي وفاء قسطنطين. وأختي كاميليا شحاتة. علما بأن هذه المباراة لا يحركها سوى التعصب الأعمى وضيق الأفق، فالمسيحيات اللاتي يدخلن الإسلام، لن يضيفوا شيئا إليه، ولن ينتقصوا شيئا من المسيحية، والعكس.

هذه الأفكار طاردتني عندما قرأت عما حدث في قرية الكرم التابعة لمركز أبو قرقاص – المنيا – عن تجريد امرأة مسيحية مسنة.

مباراة أخرى في العشق والزواج بدأت – إشاعة انتشرت في القرية عن علاقة بين أشرف عبده عطية المسيحي وامرأة مسلمة – فخاف أشرف وترك القرية تاركا أمه وأبيه ليتلقيا العقاب وحدهما – وبالفعل خرج حوالي ٣٠٠ شخص، في الثامنة مساء الجمعة ٢٠ مايو يحملون أسلحة متنوعة، فتعدوا على سبعة منازل للمسيحيين – وجردوا أم أشرف من ملابسها. عارضينها في الشارع بلا ثياب – ما دام مسيحي تجرأ وأقام

علاقة بمسلمة – فلنعري أمه، ونكشف عوراتها أمام الجميع. ولم يرد شيئا عن المرأة المسلمة – لا اسمها ولا عائلتها ولا زوجها – الشهم الذي بدلا من تأديب زوجته الخائنة يعرِّض قريته، وناس أبرياء للخطر، بل يعرض دولته كلها للخطر.

قهوة نيو إمبريال

كنتُ أجلس في قهوة " نيو إمبريال " الملاصقة لفندق سيسل العريق مع حلمي مظهر و"علي فلة "، لم أكن سعيدا فقد تضافرت المشاكل والهموم، كما يقول المتنبي: " المصائب لا تأتي فرادى ".

زميلنا الرابع الدكتور " محمد بسيوني " لم يأت للآن. دار الحديث الثقيل في كل الأشياء. تحدث "علي" عن حلقات الأستاذ محمد حسنين هيكل التي تذاع في قناة الجزيرة، وقال حلمي كلاما لا أذكره الآن. لقد سافر حلمي إلى القاهرة منذ أيام وأحضر معه " شيكا " لي عن قصة منشورة بمجلة الثقافة الجديدة، وشيكات له ولـ"علي ". وتقابلنا في البنك المركزي. الشجن يلاحقني، خطواتي ثقيلة وبطيئة. كان الاتفاق أن نجلس في القهوة ونقابل الدكتور محمد بسيوني.

قبل أن يأتي " الساقي " بالطلبات قلت لهما عن المقالة التي نقلتها عن " النت " والتي تحذر من شرب المياه الغازية، وإنها تضر بالجسم أكثر من تدخين السجائر، لكن " عليا "طلب سفن أب لأن اللقمة واقفة في زوره.

صديقنا الدكتور " محمد بسيوني " رجل طيب، حاصل على الدكتوراه في شاعر ومسرحي كبير لكنه لم يجد في آخر أيامه ألا أن يكتب الأغاني التي لا يهتم بها أحد من الموسيقيين أو المغنين. تحدثنا عن الدكتور بشيء من الشفقة.

ذكر حلمي بأنه ألف أغنية عن حج بيت الله تذاع في إذاعة الكويت، لكنه لم يسمعها ولا يعرف من الذي يغنيها، أو الذي لحنها، كل ما يعرفه أن إذاعة الكويت دفعت له ثمنها منذ أكثر من عشرين عاما. قلت له:

– قل هذا للدكتور محمد بسيوني عندما يأتي.

جاء الدكتور محمد مبتسما – كعادته – وقابلنا بالقبلات والتحيات.

هو يتابع الجرائد والمجلات والكتب التي تصدر كل يوم، ويُبّلِغْ أصدقائه بما ُنشر لهم من مقالات أو قصص أو قصائد، رغم أنه يندر أن ينشر شيئا. تحدث " علي " عن قانون الصحافة الجديد وقال: إن رجلا وراء إصدار هذا القانون ليحمي به نفسه؛ فالصحافة تنشر كثيرا عن ثروته التي تتزايد وتتضخم.

لم أكن مرتاحا للجلسة لأن مشاكلي تطاردني في أي مكان أذهب إليه. حكيت لهم عما رأيته في " سوق الجمعة ". حيث فرش بائع شاب جريدة الأخبار التي صدرت في اليوم التالي لموت جمال عبد الناصر، وجريدة الأهرام في اليوم التالي لموت السادات، قلت لمن معي وقتها: موت عبد الناصر والسادات معا.

كانت الجريدتان محاطتان بأدوات قديمة: مسامير وعدد صغيرة مصدية. والبائع الشاب يضحك، يتحدث عن حاله وحال البلد، قال:

- إنني أنتظر موت الثالث.

لم أجبه فأكمل:

- الدولة صيعتنا، أخرجتنا من أعمالنا، ولم يتبق لنا سوى هذه الأشياء القديمة لنبيعها.

قال الدكتور محمد: أريدكم أن تكتبوا عن جمال عبد الناصر.

أعرف شعوره نحو عبد الناصر، فلم أعلق، لا أحب أن أخوض في هذا الحديث معه ومع حلمي فحديثهما عن عبد الناصر يشعرني بالضيق والاختناق.

قال الدكتور محمد: لو حاتشّكروا فيه ما تكتبوش.

قال " علي فلة " للدكتور محمد لماذا تكرهه هكذا؟

قال : سأحكي لكم واحكموا.

حكاية أعرفها جيدا حكاها لي كثيرا، فشعرت بالضيق وبالرغبة في أنه أنصرف واتركهم، فأنا أتذكر عبد الناصر كثيرا في أزمتي هذه، تذكرت زيارتي لنقابة التجاريين وشاب خريج كلية التجارة يسألني بعد أن سدد قيمة الاشتراك مضطرا، عن مزايا الاشتراك في النقابة، فقلت: يكفي أن تكون منتميا لنقابة.

فجاء شابان صغيران، قال أحدهما: إننا مؤهلات متوسطة ونتمنى أن نشترك في النقابة، لكنها تشترط شيئين:

أولا: خطاب من صاحب العمل يفيد بأننا نعمل عنده، وهو لا يريد أن يعطينا ما يفيد ذلك.
ثانيا أن نكون مشتركين في التأمينات الاجتماعية، والتأمينات تريد أيضا موافقة جهة العمل.

قال الآخر: نحن على استعداد أن نشترك في التأمينات وندفع حصتنا وحصة صاحب العمل، لكنه لا يريد أن يعطينا ما يفيد ذلك.

قلت وقتها " الله يرحمك يا عبد الناصر "، في أيامه كان صبي الحلاق لابد أن يكون مشتركا في التأمينات. الآن مصانع كبيرة تدار وكل العاملين فيها غير مشتركين في التأمينات، والدولة تعرف هذا وتعرف مدى خطورة ذلك، ولا تهتم.

تذكرت الحاج بيومي الذي كان ينقل منتجات شركتنا، وينقل الدشت الوارد إلينا من الشركات، جاء إلينا بقفطان وفوقه جاكيت كالح قديم، وعمل وسيطا بين الشركة وبين أصحاب سيارات النقل. ثم اغتني وأصبح عنده أسطول من السيارات الكبيرة جدا. عمل عنده شاب خريج تجارة، كان ينتظر السيارات، ويشرف على تحميلها، ويأخذ الشيكات من الحسابات. قابله الحاج بيومي يومها بسيارته أمام بوابة الشركة خارج مزلقان السكة الحديد، وأصدر إليه تعليماته، فأسرع الشاب لينجز ما أمره به، لكن القطار الذاهب إلى رشيد – والذي يمر أمام الشركة – دهسه. فهرب بيومي بسيارته. وادعى بأنه لم يكن يعمل عنده. وضاع الشاب دون شيء. فليس لدى أسرته ما يفيد بأنه كان يعمل عند الحاج بيومي الذي كان يحرص على أداء الصلوات في المكتب أمامنا.

وحكى الدكتور محمد حكايته مع عبد الناصر. كان مدرس ابتدائي – دبلوم معلمين – ثلاث سنوات بعد الإعدادية – تعين على الدرجة الثامنة، وظل أكثر من عامين ليحصل على أول علاوة، فلابد أن يمر عليه عامان كاملان وقت استحقاق العلاوة. ثم صدر قانون جديد يعين المؤهل المتوسط على التاسعة بدلا من الثامنة.

قلت له: وما شأن عبد الناصر بما تقول؟!

فقال: لأ، مال أمي؟!.

لم أجبه فآلاف الخريجين الآن لا يعملون، وبعضهم يقبل أعمالا لا تتناسب مع مؤهلهم، فخريج الجامعة يقبل أن يتعين بالإعدادية ويرتدي البذلة الصفراء بدلة الخفراء ويمضي على ورقة يقر فيها بأنه لن يطالب بتسوية حالته بمؤهله العالي. أصحاب مؤهلات عليا ومتوسطة يعملون بالفاعل.

المصنع الذي تعينت فيه عام ١٩٦٨ بيع وتحول إلى أرض سكنية، كان أول مصنع ورق في الشرق الأوسط، أسسه خواجة يوناني قريبا جدا من كوبري محرم بك. وشركة البيبسي في مصطفى كامل تحولت إلى أرض سكنية، ومصنع بدوي أيضا وغيرها من مصانع.

أيام عبد الناصر كنا آمنين في عملنا، الذي يُعين في مصنع يطمئن على مستقبله، فيخطب ويتزوج، فهو يعرف أنه سيظل في هذا المصنع إلى أن يموت أو يحال إلى المعاش. الآن كل الأعمال على كف عفريت. عادت أيام ما قبل الثورة، وعادت جملة " وفروا كذا عامل

وموظف " تذكرت النكتة المشهورة بأن رجال الأسرة كلهم عاطلون: الجد محال بعد الستين، والأب محال معاش مبكر، والحفيد بعد أن تخرج من الكلية أو المدرسة لم يجد عملا.

قال علي فلة: لقد نجح عبد الناصر في أن يقنع تشرشل – رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت – أنه الشخص المناسب للتفاوض على الجلاء من مصر.

قال الدكتور محمد: مش معقول تقوم ثورة يوليو إلا إذا كانت أمريكا وبريطانيا موافقة على ذلك.

قال " علي ": أرجوكم ما تفهمونيش غلط، لو جه عبد الناصر دلوقتي علشان يحكم؛ حاقتله، والسادات كمان، لأن هذا ليس وقتهما.

قال حلمي ساخرا: عبد الناصر جاء برغبة من إسرائيل علشان يعمل لهم النكسة.

أردت أن أصيح فيه، لكنني صمت، فأنا غير راغب في المشاركة في الحديث. استأذنت وسرت. ذهبتُ إلى فرع هيئة الكتاب بشارع سعد زغلول لابحث عن كتب أريد شراءها، وضعتُ مجلتين فيهما مقالات عن كتبي، تركتهما بجانب الباب، واشتريتُ ما أريد. وبعد أن وصلت البيت متعبا اكتشفت أنني نسيت المجلتين. ولم أذهب ثانية للسؤال عنهما.

الإخصاء



خرجنا في آخر حركة معاش مبكر في شركتنا. مر ما يقرب من عام ولم التق به، افتقدته فهو هادئ ومهذب في تعامله، أعرف إنه سكن في شقة والده عندما تزوج، وبعد موت الأب آلت الشقة إليه. بحثت عن رقم تليفونه دون طائل.

وذهبت بالصدفة إلى قهوة الكريستال – على البحر – فوجدته هناك. كان يشاهد مباريات لعب الطاولة. عندما رآني أسرع إليّ، وجلسنا معا أمام نافذة في القهوة تطل على البحر. قال:

– أعمل في نادي أصحاب الجياد. واليوم إجازتي الأسبوعية.

ثم قال في صوت أكثر خفوتا:

– أشعر بملل، فزوجتي تذهب إلى العمل في السابعة صباحا تقريبا، وأظل في الشقة وحدي إلى أن تعود في الرابعة تقريبا، مللت. ذلك ما دفعني للعمل، صدقني ليس المال، أجلس هناك في الهواء الطلق، كما أنني أتعامل مع ناس مهذبين.

سألته: ما هي طبيعة عملك.

قال: أقوم بالأعمال الإدارية في النادي، الخدمات، والرحلات لأعضاء النادي

صمت لحظات ثم قال:

– وأنا – في الحقيقة – أحب رؤية الخيول والتعامل معهم.

دعاني لزيارته في النادي. فسرت في الممر الضيق المحاط بالشجيرات الصغيرة، صوت صهيل الجياد يأتي من كل جانب. كان يجلس على مكتب فوقه أوراق كثيرة، ما أن رآني حتى صاح فرحا، وشدني إليه وقبلني.

سعدت برؤية الخيول، السياس هناك يقفون كلما مررنا أمامهم، كانوا ينظفون أماكن مبيت الخيل، ويرشون نشارة الخشب كفراش لهم. فوجئت بفرس أسود يصهل ويتحرك في عصبية. ضحك صديقي قائلا:

– إنه " شديد "، أقوى حصان في الإسطبلات.

والسايس يمسك الحبل في قوة ليمنعه من الخروج من مكانه، ويحاول لمس الحصان وتهدئته. قال صديقي ضاحكا:

– أصل فرسة جديدة جاءت الآن.

وعندما وجدني لم أفهم قصده، قال:

– " شديد " هذا مشهور في كل الإسطبلات بأنه ما أن يرى فرسة حتى يصهل ويثور ويحاول الاقتران بها. وأصحاب الخيول جميعا يعرفون عنه هذا، ويخافون على فرساتهم منه.

كان صديقي يدون في أوراق أمامه كميات الأطعمة التي تدخل المخزن، فلما وجدته منهمكاً في عمله، استأذنت ووعدته بزيارة أخرى.

ظللت أفكر في " شديد "، إنه حصان قوي وكبير. وابتسمتُ لولعه بنساء الخيول، وابتعدت عن صديقي لمدة ليست بالقصيرة. وعندما زرته ثانية، سألته عن " شديد ".

فقال في أسى:

– لقد تغير تماما.

– هل أصيب في حادث؟

– لا، وإنما صاحبه أصر أن يجري له عملية إخصاء ليهدأ و.....

لم يكمل. وسرنا ناحية الإسطبل، فهمس في أذن السايس الذي وقف وهو ينظر إلى في أسى. ثم شد الحصان الذي خرج حزينا، ورأسه منكس للأرض في أسى.

قال زميلي:

– لقد شاهدته وهو يحاول القفز على فرسة غريبة، قام بكل قوته، واحتك بها وصهل، لكنه خاب، وفشل في مهمته. حاول أكثر من مرة، ثم عاد إلى مرقده وقد أنكس رأسه، ومن يومها وهو هكذا.

أعاده السايس إلى مكانه وهو يقول لي:

– لقد خسره صاحبه، لم يعد صالحا لا للسباق ولا لشيء آخر.

عندما عدت من نادي أصحاب الجياد. أحسست بمرارة، وقلت لنفسي: ليتني ما ذهبت لهذا النادي ورأيت " شديد " وما حدث له.

تذكرت ما كان يحدث في حارتنا عندما كنت صغيرا، فالكثير يربون الخرفان والمعيز، يتركونها تأكل من أكوام الزبالة، ثم يجمعونها في

أول الليل في حظائرها، ويأتي رجل من " الغجر " ليقوم بعملية الإخصاء لذكور الخرفان والماعز، لكي يزيد لحومها. شاهدت ما كان يفعله الرجل، فهو يفعله في الحارة وأمام الجميع، وسط ضحك النساء اللاتي يتابعن ما يحدث من نوافذ بيوتهن، أو واقفات قريبا من الرجل. وكنت أسمع تعليقاتهن الساخرة.

وتذكرت مسلسل "حريم السلطان " التي تحرص زوجتي على مشاهدته، بينما أتعذب لو شاهدته، أرى الخصيان أو الطواشي الذين يقفون أمام حجرات قصر السلطان، خافضين رءوسهم في ذل رهيب. أتذكر – حينذاك – عذاب البشر في دول الخلافة الإسلامية، هذا ما كان يحدث في قصور الدولة الأموية والعباسية والعثمانية، وهذا ما كان يحدث في قصور الأغنياء والأعيان. وهذا ما كان يحدث في قصور أسرة الشريف حسين في أرض الحجاز فقد نشرت الأميرة " بديعة " ابنة علي بن الشريف في مذكراتها التي نشرتها في لندن إن قصور جدها حسين وأعمامها عبد الله وفيصل في الحجاز كانت تعج بالأغوات والتي كانت مهمتهم رعاية النساء في تلك القصور، فقد لجأ الشريف حسين وأولاده إلى عمليات خصي واسعة النطاق بين الرجال الذين وقعوا في الأسر، وأطلق على هؤلاء المخصيين لقب "الأغوات"، وقد تكاثرت أعدادهم في القصور.

ويحكي كلوت بك رئيس مصلحة الصحة في القطر المصري أيام محمد علي، في كتابه " لمحة عامة إلى مصر ": الجزء الأول صفحة

٦٣٠: عن عملية الجب التي تجري في مصر، فيقول: إن هذه العملية لا تجري الآن إلاَّ في القطر المصري، الذي أصبح المورد الذي تستورد منه الخصيان، ويتم هذا الجرم في مدينتي أسيوط وجرجا، جماعة من المسيحيين، خاصة في قرية زاوية الدير التابعة لأسيوط. يختارون فصل الخريف الصالح – في رأيهم – لنجاح هذه العملية، فيشترون حوالي ٣٠٠ طفلا بين السادسة والتاسعة وسعرهم يقع بين ١٥٠٠ قرشا و٣٠٠٠ قرشا. ثم يقطعون العضو الذكري، ولكي يمنعوا تدفق الدماء، يصبون علي الجرح زيت مغلي، ثم يدفنون الأطفال من أقدامهم حتى بطونهم في الجبل، فيموت حوالي ربعهم، لكن من يعيش يبيعونه بسعر غالي جدا، ليعمل خادماً في حرم القصور.

وقد اشترك محمد علي والي البلاد في تجارة العبيد، فمثلما احتكر الزراعة والصناعة والتجارة فقد احتكر تجارة الرقيق لفترة محدودة.

وكان ملوك الحبشة يرسلون أحباشا، خاصة الخصيان كهدايا لحكام مصر وذلك لتلطيف العلاقات المصرية الحبشية المتوترة دائما، حيث كان الخصيان مطلوبين في الأستانة والأقاليم الإسلامية الأخرى كهدايا يرسلها حكام مصر إلى السلطان العثماني ورجاله في إسطنبول.

وقد ساعدت الأحاديث غير الصحيحة المنسوبة للرسول – عليه الصلاة والسلام – على رواج وتأكيد هذه التجارة البغيضة. مثل:

- ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم، العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم هم له كارهون. (الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، كتاب الصلاة).
- وأيما عبد مات في إباقة دخل النار وإن كان قُتل في سبيل الله (الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي، حديث رقم ٢٩٥٨).

وعندما تم الاتفاق بين انجلترا ومصر في ٤ أغسطس ١٨٧٧م لمحاربة تجارة الرقيق؛ عارض شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية هذا الاتفاق، مما دفع الخديوي إسماعيل لعزلهما، وأنذر هيئة العلماء، بأنه سيضطر لعزلهم – أيضا – لو عارضوا الاتفاقية.

الحفاة في مصر

عنـــدما انتقلـــتْ إدارة شـــركتنا مـــن شـــارع ســـعد زغلـــول بالإسـكندرية إلى مقـر الـشركة بالطابيـة، دهـشتُ ممـا أرى عبـر نافـذة الـسيارة التـي تقلنـا إلـى هنـاك، رأيـتُ سـيدات يجلسن على حافة "المصرف" ويغلسن أوانيهن.

ميـــاه المـــصرف ليـــست عميقـــة، ولا تـــسمح بالـــشرب، لكـــنهم يستخدمونها في كل شيء.

سرتُ بعد أيام من مقر شركتنا حتى شركة راكتا، وهي في آخر حدود الإسكندرية، وبعدها تبدأ محافظة البحيرة. وجدتُ كل البيوت مبنية بالطوب النى على هيئة حجرات صغيرة واطئة،. حياة صعبة للغاية، طريق أسفلتي ضيق يقع بين قضبان السكة الحديد، حيث يمر قطار رشيد من هناك، والمصرف الطويل الذي تعتمد عليه شركتنا وشركة راكتا في صناعة الورق، وترميا فيه مخلفاتهما.

تسير النساء وهي تمسك أطفالها، ولضيق الطريق وازدياد السيارات التي تمر فيه؛ يموت الطفل في يد أمه، فالسيارة تدهسه وتطير إلى بعيد.

ثـم ازداد عـدد الـشركات هنـاك، شـركة للـسماد تعتمـد علـى ميـاه البحر، ومصانع قطاع خاص في شتى المجالات، فالأرض رخيصة هناك والعمالة رخيصة.

كنا نركب سيارات الشركة، وسيارات مؤجرة تأتي من الإسكندرية، وتعود بنا آخر النهار، فنظل أنا وزميلان في السيارة مع السائق، ننزل معه أمام شركة راكتا، ونتناول الإفطار في المطاعم الكثيرة هناك، أو في المقاهي، الطعام لا يخرج عن الفول والطعمية والجبن القريش، والقديم الذي كان يفضله أحدنا ولا يشبع منه، المطاعم عبارة عن أكواخ من " البوص "، وفتاة سمراء ملابسها متسخة، تلبس شبشباً في قدميها تدير العمل بنجاح.

وسيدات يأخذن ورق الدشت الموضوع في الخارج ليشعلن به أفرانهن، أو يذهبن إلى مبني الإدارة، وقد كان في السابق قصرا للباشا " حسن نشأت"، وهو خارج حدود الشركة، تأتي النسوة لبيع الجوافة التي تُزرع بكثرة هناك، أو الجرجير والفجل، فيقفن لنا خارج نوافذ القصر في الدور الأرضي، ويدخلن لحمل الماء إلى بيوتهن، لاحظت أن معظمهن حفاة، أو يلبسن الشباشب البلاستيكية، وقد عملتْ معي واحدة من هناك، حصلتْ على دبلوم تجارة بصعوبة، وكانت تحكي لي كثيراً عن حياتها، والعذاب الذي لاقته، فقالت لي: كنا نسأل المرأة أو الفتاة، إذا وجدنها تلبس شبشباً في قدميها: أنت رايحة فرح ؟!

الكل كان حافياً. ذلك ذكرني بما فعله أحمد حسين – زعيم حزب مصر الفتاة – قبل ثورة ٥٢ الذي قاد حملة صحفية تحت عنوان (رعاياك يا مولانا) نشر خلالها على صفحات جريدته تحقيقات صحفية مدعمة بصور العراة والحفاة من أبناء الشعب المصرى.

وعن مشروع حزب الوفد بجمع التبرعات لمقاومة هذا الحفاء، وشراء الأحذية للناس.

وقد حكت لي هذه الفتاة حكايات غريبة عن منطقة الطابية، منها أن واحداً من سكانها، كان يعمل حارساً ليلياً على محطة الكهرباء، فاتفقت معه عصابة على أن ترمي قريباً من مكان حراسته كمية مخدرات كبيرة من طائرة هليكوبتر، مقابل مبلغ كبير، فوافق، وعندما دخل على زوجته بهذه الكمية الهائلة من الأموال، وهي في حجرتها المبنية من الطوب النيء، أصيبت بالجنون، ومازالت مجنونة للآن.

هذه المنطقة هي التي أختارها حسن نشأت باشا، وكيل الديوان الملكي السابق، بعد أن أمر المندوب السامي الإنجليزي الملك فؤاد أن يبعده عن أي وظيفة حكومية في الدولة، ففكر في الاتجاه إلى الصناعة، فطلب من الملك فؤاد – صديقه المقرب – قطعة أرض في هذه المنطقة، وأقام ثلاثة مصانع: مصنع للورق، ومصنع للصلصة، ومصنع لتعليب منتجات الألبان واللحوم.

كان حسن نشأت صديقاً للممثلين، فدعاهم لتصوير فيلم " أرحم دموعي " في هذه المنطقة، وكان يحيي شاهين يقوم بدور حسن نشأت صاحب مصنع الورق، وأتخذوا قصره سكناً لفاتن حمامة ويحيي شاهين، وناموا في حجرة نومه الذي كان مكتبي فيها بعد أن تحولت بعد التأميم إلى مقر لإدارة المراجعة بالشركة، وجلس شكري سرحان (الذي يقوم بدور شقيق فاتن) وزهرة العلا (التي تقوم بدور شقيقة يحيي شاهين)،

جلسا أمام القصر، يمدان سنارتين يصطادان بهما السمك من البحر. وكانت الممثلة شريفة ماهر (التي قامت بدور غريمة فاتن حمامة)؛ تمسك التليفون وتقول: " مصنع الورق الأهلي"، ومثل عدد كبير من عمال الشركة في الفيلم.

كان حسن نشأت رجلا داهية، عاش في هذه المنطقة التي تجمع بين الريف والحضر معاً، وأقام علاقات ودية بين الأهالي، وكان يسير بينهم، ويحدثهم، ويدعوهم للعمل في مصانعه الثلاثة. ويبيع لهم أجزاء من أرضه، التي وهبها له صديقه فؤاد الأول، أو يهب لمن يشاء أرضاً مقابل أن يحرس مخازن ورق الدشت التي كانت تقام خارج المصنع. وكانوا يسمون المنطقة التي يمتلكها "عزبة الباشا".

ويحكون إن حسن نشأت اشترى كمية كبيرة من القباقيب، وصرفها للعاملين في مصانعه الثلاثة، حتى لا يدخلون إلى مصانعه حفاة.

كنا – نحن الأطفال – في حينا (غربال) معظمنا حفاة، وقد ذهبنا للعب الكرة أمام الإستاد، في قطعة أرض مواجهة لمبني الإسعاف، كنا نرتدي البيجامات والجلابيب، حتى الذي جاء بحذائه أو شبشبه؛ خلعه من أجل اللعب. وجاء بعض السياح، وجمعونا بملابسنا هذه ووجوهنا المتسخة من آثار اللعب والعرق، والتقطوا الصور لنا.

وحذرنا زميل لنا أكبر منا قائلا:

– هذه الصورة ستسيء إلى مصر، سيأخذونها معهم، لكي ينشروها في صحفهم، ويكتبوا تحتها هؤلاء هم أطفال مصر.

كنا نمشي حفاة ونتلذذ بسخونة الإسفلت؛ خاصة في فصل الصيف. كانت القباقيب منتشرة في بيوتنا وبيوت معظم المصريين، فتسمع دقات القبقاب فوق أسقف البيوت؛ خاصة المصنوعة من الخشب البغدادلي، وفي كل مكان يقف بائع القباقيب، قطع الخشب على شكل الأقدام، والرجل طوال الوقت يدق الجلد في مقدمه، والأغاني تتحدث كثيراً عن القباقيب، أغنية عبد العزيز محمود: " يا اسمر يا جميل"، والتي يقول فيها:

يا اسمر يا جميل آه يا سمارة، انت أمارة من السما جايه
يا أبو الخلاخيل ياللي كعابك فوق قبقابك"ورد في ميه.

وكانت القباقيب تستخدم بكثرة في الشجار بين الناس، فتسمع في عز الليل صوت رجل يصيح من الألم لأن زوجته ضربته بالقبقاب، أو أن تستخدمه النساء في شجارهما معا.

وأذكر رئيس الشركة الذي كسر احتكار تجار ورق الدشت الكبار الذين يشترون من "السريحة" الذين يجمعون الورق من الشوارع ثم يبيعونه لشركتنا في بالات كبيرة مكبوسة وبسيارات نقل كبيرة، فسمح لأي "سريح" بأن يأتي إلى الشركة بورقه، حتى ولو كان في "جونية" وبكمية ليست بالكبيرة، وحكى لي أحد التجار الكبار، من أن واحدًا من هؤلاء الذين يجمعون الورق من الشوارع، قد دخل "البنك" وهو حافي القدمين، ويرتدي قفطانا من العبك، وجلس في انتظار دوره مع المنتظرين، وعندما لمح التاجر الكبير الذي كان يبيع له ورقه، ويتحكم

فيه؛ أخرج الشيك من قفطانه المتسخ، وأخذ يهوي به، معلناً للتاجر الكبير بأنه أصبح مثله، يبيع للشركة رأساً، ويصرف من البنك مثله.

وعندما قامت ثورة ٥٢ كان مستشفى حكومي قد أقيم على شط ترعة المحمودية، وقريب جداً من كوبري راغب باشا، وكانوا ينوون أن يطلقون عليه اسم ابنة من بنات الملك فاروق كما هو متبع في ذلك الوقت (كل الأشياء باسم الأسرة المالكة)، لكن الثورة قامت ونجحت، وأعلنت الجمهورية، فأطلقوا اسم " الجمهورية " على المستشفى الذي كان مكوناً من جزءين، الجزء الأول عبارة عن حمام شعبي، للرجال والنساء، والجزء الثاني مستشفى يعالج كل الأمراض، وأذكر نساء الحارة وهن يسرن جماعات ذاهبات إلى حمام مستشفى الجمهورية، ويحملن ملابسهن النظيفة التي سيرتدينها بعد الاستحمام، ثم يعدن وقد أحمرت وجوههن من تأثير الماء الساخن والصابون، وتعود كل واحدة وهي تحمل ملابسها المبتلة على رأسها، ومعها المتبقي من الصابونة التي سلموها لها، فقد كان المتبع في الحمام أن يأخذون ملابسهن المتسخة، ويغسلونها لهم.

تم إلغاء الحمام بعد ذلك، وضُم مكانه للمستشفى.

رحلة الحذاء في مصر، ذكرتني بما حكته لي قريبة لي، جاءت من الصعيد كبيرة لتتزوج، قالت:

– كانوا في الصعيد لو رأوا رجلا أو امرأة تحمل زجاجة " قازوزة " يسرعون خلفها في قلق وجزع متساءلين في لهفة:

– مين العيان عندكم؟!

فهم لا يشترون زجاجات " القازوزة " إلا للمرضى، ولديهم اعتقاد راسخ أنها تشفي من جميع الأمراض.

وقد كنتُ ساهراً في بيت هذه السيدة لأستذكر مع ابنها، وجاءت أخت زوجها من الصعيد، وتناولت طعاماً فيه لحم أبيض كثير، ثم نامت، وفي الصباح الباكر استيقظت من نومها فجأة وهي تضع يدها على رأسها صائحة:

– أغثوني، رأسي تدق في عنف.

فقالت لي صاحبة البيت:

– شوف لها دكان فاتح واشتر لها زجاجة قازوزة.

وذهبتُ بالفعل، فوجدتُ محلاً يسهر للصباح، اشتريتُ منه زجاجة قازوزة، وشربتها المرأة وصحت وزال عنها الألم، ولا أدري للآن ما علاقة هذه الزجاجات بارتفاع ضغط الدم وعلاجه.

كان بعض الرجال يصنعون الشباشب والصنادل من جلد عجل السيارات، أحدهم يجلس في شارع الخديوي، يلصق ظهره في سور " مدرسة الدون بوسكو "، ويمسك مشرطاً يسلخ به قطع الجلد من العجل القديم بجواره. الشبشب بقرشين ولو دفعت ثلاثة قروش ونصف، يحول لك الشبشب إلى صندل، قطعة جلد تلتف حول مؤخرة القدم، وأبزيم يحكم الصندل على القدم، ذهبتُ مع صديق لي، صنع له الرجل الشبشب أمامي، ورغبتُ في أن أجرب هذا، رغم أنني لم أكن في حاجة

إليـه، فقـد كنـت أمتلـك حـذاء، ودفعـت للرجـل الثلاثـة قـروش ونـصف، ولبست الصندل العجيب، التراب والعرق يلتصق به من أول لبسة له. ولا ينفع معه تنظيف.

تحقيق الذات

قال قريبي الذي يكبرني بأعوام كثيرة، لقد أختار الله لي الأفضل في كل شيء، فقد خُلقت ذكرا، والذكر أفضل من الأنثى، ونشأت وتربيت في الصعيد، ولا أرى مكانا أجمل وأهم من الصعيد، ووجدت نفسي مسلما..

طبعا إعجابه بديانته، أمر عادي، فما زلت أذكر التحقيق الجميل الذي أجرته جريدة الدستور (الإصدار الأول) عن الفنان عبد الحليم حافظ، فسألت مسيحيا:

- هل عبد الحليم حافظ سيدخل الجنة؟

فقال ببساطة شديدة: لأ طبعا، لأنه ليس مسيحيا.

أعجبني هذا الرد كثيرا، فلو سألت هذا السؤال لبوذي، أوهندوسي أو أي ملة أخرى، سيجيبك نفس الجواب.

إنني أحسد قريبي هذا لأنه راضيا عن نفسه كثيرا، بينما أنا غير هذا، فقد تمنيت أن أكون موسيقيا، وسنحت لي فرصة في أول حياتي، لكنني لم أستغلها، فقد أختاروني لتعلم الموسيقى عندما التحقت بالتعليم الإعدادي، لكنني تركتها، لأنني لا أحتمل الحبسة، فقد كان النظام أن نتعلم العزف على البيانو والكمان، وأصحاب الأجساد الرشيقة يرقصون

الباليه ونعيش في المدرسة منذ صباح يوم السبت حتى انتهاء يوم الخميس الدراسي، ومازلت حزينا لأنني لم أحضر امتحان آخر العام، لكي أرسب في الامتحان فيطردوني منها. وقررت أن أعوض هذا بتعلم العزف على آلة الكمان التي أحبها كثيرا. ومرت السنوات دون أن أتعلم شيئا.

وأحببت الرسم، لكنني لا أعرف فيه شيئا، أحس أن الرسامين أقرب إلى الملائكة لأن الله أعطاهم هذه الموهبة الجميلة النادرة.

لكن حدثت حادثة جعلتني أقدر قيمة الكتابة والتأليف، فقد دخلت قاعة مظلمة يعرضون فيها الأفلام في نادي السينما بالقاهرة؛ لكي أقابل صديقي محمود قاسم، فلم أجد إلا المقاعد الخالية والظلام، وقبل أن أخرج سمعت صوتا يناديني، كان سامي السلاموني يجلس في الظلام وحده.قال لي:

– لقد أهديتني روايتك الصعود فوق جدار أملس، أتذكر؟

– نعم، كان هذا في مهرجان السينما بالإسكندرية.

فقد ذهبت مع محمود قاسم لحضور ندوات المهرجان في فندق كبير من فنادق الإسكندرية، فأهديت سامي السلاموني روايتي الوحيدة — في ذلك الوقت، الصعود فوق جدار أملس، وظننت أن هذه النسخة، ستذهب كمئات النسخ التي أهديتها دون طائل، لكن الرجل قرأها وأعجب بها، فقلت له:

– إنني حزين، فلدي أكثر من رواية ولا أجد من ينشرهم لي.

كنت قد كتبت روايتيّ الجهيني وجبل ناعسة منذ سنوات طويلة ولا أجد من ينشرهما لي.

فقال في حدة:

– ما الذي يحزنك، ماذا تحتاج لكي تحقق ذاتك وتكتب رواية؛ سوى الورق والقلم، بينما الممثل في حاجة إلى أشياء كثيرة جدا، نص، ومصور ومخرج وموسيقي.. إلخ

وحكى لي بأنه حاصل على شهادة في الإخراج، ولا يستطيع إخراج فيلم، لأنه في حاجة إلى أموال كثيرة.

كان هذا في الوقت الذي تقرر فيه نقله من مجلة الإذاعة والتليفزيون مع الناقد الأستاذ جلال العشري إلى عمل بعيد عن الصحافة، ففي خريف الغضب الذي غضب فيه السادات على الكل، تم إعداد قوائم للتخلص من صحفيين يعارضون النظام، فحشر الذين أعدوا القوائم أسماء الصحفيين الذين يسببون لهم مشاكل، والذين لا يمشون على هواهم.

لم أعي حقيقة ما قاله سامي السلاموني لي عن تحقيق الذات، إلا عندما سافرتُ إلى القاهرة مع صديقي الممثل محمد خليل لمقابلة المخرج التليفزيوني الراحل فؤاد عبد الجليل بعد أن قدم له الدكتور رفيق الصبان روايتي الهماميل، واتفقا علي تقديمها كمسلسل تليفزيوني.

ذهبتُ مع محمد خليل إلى استوديو عرين في الزمالك، وقابلنا فؤاد عبد الجليل، ثم ذهبنا إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون. كان محمد

خليل يجامل المخرجين والمساعدين، ويحرص على أن يروه لكي يقدموه في أعمالهم.

وتذكرت ما حكاه لي أحد الأصدقاء، بأنه كان يجالس مخرج إذاعي مشهور، ثم وقف ممثل من ممثلي الصف الثاني أو الثالث أمام الباب، ونادى المخرج، لكنه لم يرد عليه، فقال صديقي له:

– كلم، الرجل يناديك منذ وقت طويل.

فقال في صوت خافت: سيبك منه.

فاضطر الممثل أن يمشي.

قلت لنفسي وقتها: لقد كان سامي السلاموني محقا، فيمكنني أن أحقق ذاتي، وأمارس عملي الذي أحبه وأنا جالس في حجرتي، وسط كتبي، وأمام جهاز الكمبيوتر، أي سعادة أعيشها، لا أحتاج إلى مخرج، ولا مصور ولا أي شيء من هذا القبيل، بل يمكنني أن أنشر أعمالي وأنا في مكاني، أرسل ما أريده عن طريق النت، أو البريد.

الفهرس